

فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية

تأليف

محمد فرج

السنة الثالثة ـ الكتاب الخامس والأربعون

ذو الحجة عام ١٣٩١هـ ـ فبراير عام ١٩٧٢م

سلسلة البحوث الإسلامية

إهـــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم الدكتور/ علي حسين كرار

القاهرة



فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية

تأليف

محمد فرج

السنة الثالثة ـ الكتاب الخامس والأربعون

ذو الحجة عام ١٣٩١هـ ـ فبراير عام ١٩٧٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، وصلوات الله وسلامه على خاتم المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه الذين أعلوا راية الحق ، وكافحوا ما وسعهم الكفاح في سبيلها. ورضي عمن تبع هداهم الى يوم الدين .

وبعـد :

فان الاسلام دين الله الخاتم بعث به سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة في مشرق الأرض ومغربها . مبشرا ونذيرا ، وهاديا الى الله باذنه وداعيا الى دينه مطبقا قول العلي الأعلى في محكم كتابه : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » . فبلغ صلوات الله وسلامه عليه رسالة ربه وأدى الأمانة . وصبر على مشاق الدعوة وصابر ، وبذل ماوعته الأيام . وحفظته كتب التاريخ ، لايألوا جهدا ولا يقصر عن غاية في ايمان واثق بالله ، واستجابة راضية لكلمته . فكان النموذج الأمثل للمعاناة الشاقة والتحمل المضنى . على نحو لم يعرف تاريخ الرسالات بينه ضريبا .. أفرغ صلى الله عليه وسلم مذخور الطاقة، وقابل الاساءات الساخرة بابتسامة الصفح ، والاعتداءات الحاقدة بالدعاء للمعتدين .

صلوات الله وسلامه عليه في كل لحظة وحين ، وصلوات الله وسلامه عليه يوم ذهب الى الطائف يدعو الى كلمة الله . كلمة الحق فيغرى به السادرون في الغى سفهاءهم وغلمانهم وأطفالهم يسخرون منه ويقذفونه بالحجارة حتى تدمى عقباه فلا يغضب لنفسه ، ولا تطوف بخاطره سحابة من الكراهية ، وانما تنفعل نفسه بتلك الكلمات التي تجاوبت بها أبعاد الفضاء فأصغى اليها التاريخ وسجلها في اجلال واكبار ، وبقي رنينها يطرق سمع الأجيال : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، اللهم يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي

الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى أو الى عدو ملكته أمرى . ان لم يكن بك على غضب فلا ابالى ، ولكن عافيتك هى أوسع ، انى أعوذ بنور وجهك الذى اشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من ان تنزل بى غضبك او تحل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ، لا حول ولا قوة الا بك » .

وأذن الله للدعوة أن تأخذ مجالا غير هذا المجال فأمر رسوله أن يتخذ من يثرب مجالا جديدا وافقا رحيبا يستطيع فيه المغلوبون على أمرهم أن يتنفسوا بكلمة الله ويبلغوها عباد الله فى آفاق الأرض ، ولكن الحقد الآثم ظل مسيطرا على أعداء الدعوة. وهنا كان لابد من المواجهة فأنزل الله فى كتابه : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » .

وعندئذ حمل الرعيل الأول من المسلمين أسلحتهم باذن ربهم حماية للدعوة ، وتعبيدا لطريق حريتها حتى تأخذ مسارها المقدور فتبلغ الناس كافة ليؤمن من يؤمن عن بينة ، ويدع المعاندون ماهم فيه من استعلاء وطغيان يحول دون حرية المستبصرين الذين يتناولون الأشياء بعقولهم المفكرة وقلوبهم التى لم تغلبها آفات الأضغان وبوائق الأحقاد ، فكانت الأسلحة فى أيدى الرسول والمسلمين مباضع نطس معالجين. ودارت المعارك بين المسلمين وأعداء الاسلام الذين يتربصون بالدعوة ولا يريدون لها وقارا ، فكانت هذه المعارك فنا من فنون القتال تعددت جوانبه المعطاءة للمعنيين بفن الحرب .

وكتاب « فن ادارة المعركة فى الحروب الاسلامية » للأستاذ محمد فرج يلقى الأضواء على جانب اهم فى فن المعارك .. ذلك الجانب هو فن ادارة المعركة . وهو جانب خطير ينبغى ان يلتفت اليه المعنيون بالشئون العسكرية ، حيث الادارة تعتبر من أخطر العوامل فى اتصالها الوثيق بغاية أى معركة .

والله نسأل أن يفيد منه قراءه بعامة ، والمعنيون بالشئون العسكرية بخاصة .

والله الموفق والهادى الى اقوم سبيل .

دكتور محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

مقدمة المؤلف

تعتمد الحرب أساساً على مبادئ ثلاث . . . النظرية ، والاعداد ، والتطبيق ، والحروب الإسلامية شأنها شأن أية حروب أخرى قامت على هذه المبادئ الثلاث . . . وكان للإسلام فى هذا المجال قصب السبق ، لأنه عالج شئون الحرب على أسس سليمة واعية ، جعلت من الحرب الإسلامية نبراسا للقادة ، وهدى للعسكريين ، ومثلا يقتدى من مختلف العصور والأزمنة .

وإن المؤرخ المنصف حين يطالع تاريخ الحرب الإسلامية ، ويقف على ما خلده الإسلام فى تاريخ الحرب من دروس ونظريات ومبادئ لا يملك إلا أن يعترف له بالفضل .

ولا عجب فى هذا فإن الإسلام قد طور نظرية الحرب ، وهذب فكرتها ، وسما بأسبابها ، ووضع مبادئ الاعداد للمعركة ، وأرسى القواعد والأصول التى تحقق النصر ، وأخرج جيلا من العسكريين كانت لهم صفحات مشرقة فى التاريخ الحربى .

لقد طور الإسلام نظرية الحرب من الكم إلى الكيف ، فبعد

أن كانت القيادات تعتمد فى معاركها على العدد . . . أى عدد المقاتلين الذين يشتركون فى القتال، ويواجهون العدو، وكمية السلاح التى يستخدمها المقاتلون ، جاء الإسلام فجعل المعركة تعتمد أساساً على الكيف ، أى على المقدرة الفردية وامكانية المقاتل وقدرته ، إذ اهتم بالفرد كمحارب فأصبح يعتمد فى معاركه لا على الرجال وكثرتهم فحسب ، وإنما على قدرتهم وإمكانياتهم ومشاعرهم ومعنوياتهم ، وأصبح يهتم اهتماما بالغاً بشخص المقاتل وذاته . . . باليد القوية التى تحمل السلاح ، والقلب المؤمن الذى يخفق من خلف السلاح ، والعقل المفكر الذى يدير وسائل استخدام هذا السلاح .

واعتمادا على نظرية الكيف خاض الإسلام معاركه التاريخية ، وكتب جنده فيها أروع وأشرف صفحات النضال المسلح .

وارتقى الإسلام بأسباب الحرب ودوافعها ، فلم يجعلها وسيلة الكسب أو الغنم أو التوسع أو بسط النفوذ أو امتلاك الأرض ، وكان منهجه فى ذلك أنه « لا إكراه فى الدين » . . .

كان هدفه إصلاح المجتمع والقضاء على الحرب ، ولهذا حرم الظلم وأمر بالعدل ، إلا أنه حين قوبل بالعنف والاضطهاد ، أُذن للمسلمين بالقتال ،

ولكن حُدد هذا الإذن بحالتين لا ثالث لهما . أولهما : حالة الدفاع عن النفس والعقيدة والدين : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وثانيهما : حالة رد الاعتداء ورفع المظالم رغبة فى إقامة العدل ونصرة المظلوم .

وهذب الإسلام فكرة الحرب ، ووضع لها القواعد التى يلتزم بها المسلمون ، فأمر بالكف عن القتال إذا كف عنه العدو ، والاستجابة إلى السلم إن لاحت بارقة أمل فيه ، وقصر القتال على الجيش المقاتل دون النساء والأطفال والشيوخ والرهبان ، وتحريم التمثيل بالقتلى والاحراق بالنار واتلاف الأموال وتخريب الديار .

ومن ناحية أخرى فإن الإسلام لم يشأ أن يدخل المسلمون معركة دون الاعداد لها ماديا ومعنويا ، فقد اهتم باعداد المقاتلين ليكونوا على درجة من الكفاءة فى القتال فعلمهم ودربهم على أصول القتال ومواجهة العدو ، واهتم بهم بدنيا وعقليا ، وغرس فيهم روح المقاتل الصادق المؤمن ، حتى أصبحوا مضرب الأمثال بين جند العالمين .

ثم اهتم الإسلام باعداد السلاح اللازم للمعركة والقيام على خدمته

ليكون صالحاً للاستخدام ، وكانت أسلحة الهجوم عند المسلمين هى : السيف والرمح والقوس ، وكانت الخيلة هى السلاح الراكب ، ولقد استفاد المسلمون من أسلحة أعدائهم فأدخلوها فى تشكيلاتهم وحاربوا بها كالمنجنيق ، والدبابة ، والنار اليونانية التى أخذوها عن الرومان ، والسفن الحربية التى كان لها تاريخ مشرق فى تاريخ البحرية عامة .

بعد أن توفر لدى المسلمين الرجال الأشداء القادرون على خوض المعارك ، وعندما أصبح لديهم السلاح والعتاد الذى يستخدم فى القتال لم يعد أمامهم إلا دخول المعركة .

ودخول المعركة فن يبدأ قبل القتال بوقت طويل يشمل مرحلتين . . . مرحلة ما قبل المعركة ثم مرحلة الاشتباك . . . الأولى هى التنظيم للمعركة ، والثانية تعنى (تـكتيكات) مواجهة العدو .

وبمتابعة تاريخ المعارك الإسلامية يثبت أن المسلمين كانت لهم معرفة عميقة بهذا الفن ، وإدراك واع بأصوله ، وفهم واسع لأساسياته ، وقد باشروا الحرب بهذا الباع الطويل فى فن المعركة .

ومرحلة الاشتباك هى المرحلة الحاسمة فى تاريخ الحرب وقد أعد لها الإسلام كل مقوماتها وعواملها ، وكان سباقا فى هذا المجال إذ سبق

القيادات العسكرية الحديثة فى التجهيز للمعركة بأسلوب مستحدث حقق أعظم الانتصارات وأروعها .

ولأهمية هذه المرحلة رأيت أن أقصر الحديث عنها ، آملا أن يلمس القارئ صورة مشرقة للإسلام وصفحة خالدة فى تاريخه وجانبا وضاء فى معاركه . . ويداعبنى الرجاء وأنا أقدم هذه الدراسة فى أن يأخذ الله بأيدينا حتى نصل أمجاد ماضينا بعزة مستقبلنا ، وحتى نرفع راية سيدنا رسول الله مرة أخرى فوق المسجد الأقصى ، وحتى ننال النصر الذى وعد الله به المكافحين من عباده ، فندحر عدو الله وعدونا ، ونصبح كرجال محمد أعزة أقوياء ترتفع بجهدنا كلمات الأذان العظيم (الله أكبر . . لا إله إلا الله . . محمد رسول الله) .

محمد فرج

الباب الأول

التنظيم

« قدم أمامك الطلائع ، ترتد لك المنازل ، وسر في أصحابك على تعبية جيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تقاتل بجروح فان بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فان في العرب غرة . وأقلل من الكلام .. »

من رسالة أبي بكر
الى خالد بن الوليد

هل يستطيع أى جيش أن يخوض غمار معركة قبل أن يتناوله التنظيم ؟

لا يختلف اثنان فى الاجابة على هذا السؤال ، فليس هناك اختلاف فى أن الجيش — أى جيش — لا يستطيع أبدا أن يدخل معركة ويشتبك فى قتال دون أن يكون قد رتب أموره بحيث تحدد الواجبات والمسئوليات ووسائل التعاون بين القوات .

والمعارك الكبيرة التى تمت فى الإسلام تؤكد هذه الحقيقة بالنسبة للجيوش الإسلامية فلم يدخل جيش إسلامى معركة قبل أن يصل التنظيم فيه إلى مستوى المسؤلية ، وقبل أن ترسم السياسة العامة للمعركة ، وقبل أن توضع خطة التعاون والتلاحم بين القيادة والافراد وبين القوات بعضها وبعض ..

ولعل التنظيم المتقن لسير العمليات فى المعارك الإسلامية كان من أهم وأجل عوامل انتصار المسلمين .

جاء الإسلام فوجد العرب فى جاهليتهم يحاربون على غير نظام .. كانوا يحاربون بنظام الكر والفر ، بمعنى أنهم إذا هموا بالقتال كروا

على عدوهم ، فإذا أحسوا بضعف فروا ، ثم يعودون فيكرون ، وهكذا كان نظام الحرب عندهم لا يقوم على نظام ولا يلتزم بقاعدة .

فلما قام الإسلام وضع نظاما للقتال فى ضوء ما أمر به الله تعالى فى كتابه الكريم : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » وفى ضوء ما أشار به الرسول الكريم فى حديثه : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

وكان الجند فى أيام النبي « يرتبون صفوفا » وهو ما يعبر عنه بالزحف ، وكانوا يمشون بصفوفهم إلى عدوهم ، وكانت الصفوف تقل أو تكثر تبعا لقلة الخارجين أو كثرتهم .

بهذا النظام واجه المسلمون العرب ، وكانوا لا يعرفونه ، فكان مفاجأة ، وكان من أسباب نصرتهم على أهل الكر والفر ، واعتبر هذا النظام تحولا فى أسلوب الحرب .

ومع ثبات المسلمين بالزحف ، فقد كانوا يجعلون وراءهم الابل والنساء والاحمال فيزيدهم ذلك استماتة فى الحرب وصبرا على القتال .

ولما تكاثر المسلمون فى عهدما بعد الرسول أى فى أيام الخلفاء الراشدين صاروا ينظمون أنفسهم صفوفا باعتبار الأسلحة . . قال

علي بن أبي طالب لجنده يوم واقعة صفين : « سووا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدموا الدارع وأخروا الحاسر ، وعضوا على الأضراس ، فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، والتووا على أطراف الرماح أصون للأسنة ، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش ، وأسكن للقلوب ، وأخفتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار ، واقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها الا بأيدى شجعانكم ، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر » .

هذه الوصية تنطوى على خلاصة نظام الجند فى الحرب أيام الراشدين . .

وكان المسلمون يسوون صفوفهم كصفوف الصلاة ، وجاء فى السيرة الحلبية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمر بين الصفوف يسويها بنفسه ويعدلها ، وفى يده عليه السلام ، سهم بلا ريش .

وروى أنه مر بصفوف المسلمين فى بدر فوجد رجلا اسمه سواد خارجا عن الصف فطعنه فى بطنه وقال « استويا سواد بن غزية » .

وحين كثر عدد المقاتلين من المسلمين تطور نظام الصفوف إلى ما سمى بالتعبئة . . أى ترتيب المقاتلين على نظام الكراديس . .

والكردوس كلمة يونانية[1] (Koortis) ومعناها الكتلة أو الكتيبة ، والكتيبة تسمى باليونانية (فلانكس Phalanx) ولقد استخدم خالد ابن الوليد نظام الكراديس فى موقعة اليرموك سنة ١٣ ، فجعل جيشه ستة وثلاثين كردوسا ارتفعت فى بعض الروايات إلى الأربعين .

وكان هذا النظام متبعا عند الرومان فأخذه عنهم خالد ليحاربهم بمثل نظامهم ، وانتصر بهذا النظام عليهم . قسم خالد جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب ، وجعلها كلها كراديس ، وأقام على القلب أبا عبيدة بن الجراح وعلى الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وعلى الميسرة يزيد بن أبى سفيان ، وأقام على كل كردوس بطلا من شجعان المسلمين وفرسانهم من أضراب القعقاع وعكرمة ، وعياض ابن غنم ، وعبد الرحمن بن خالد ، وكان أبو سفيان يسير فى الكراديس ويقف عليها وهو يقول : « الله ، الله ، إنكم قادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم قادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك » .

---

(١) فى القاموس كردوس الخيل ـ أى جعلها كتيبة كتيبة .

وهكذا أعد خالد المسلمين اعدادا نظاميا لم يسبق لهم أن خرجوا في مثله .

واقتبس سعد بن أبي وقاص هذا النظام في القادسية سنة ١٤ هـ(١)

ولم يصبح هذا النظام رسمياً إلا في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فقد أمر بإبطال نظام الصفوف نهائيا ، واتباع نظام الكراديس ، وبهذا النظام حارب الضحاك الخارجي ثم الخبيري ، وكتب عبد الحميد كاتب محمد بن مروان يوصي ولي عهد الخلافة بتعبئة الجيوش قال :

« إذا كنت من عدوك على مسافة دانية ، وكان من عسكرك مقتربا وقد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وحماة فتنته ، فتأهب أهبة المناجزة ، وأعد أعداد الحذر ، وعب جنودك وإياك والميسرة إلا مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، قد شهروا بالأسلحة ، ونشروا البنود والأعلام ، وعرف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم ، قد أخذوا أهبة القتال ، واستعدوا للقاء ملحين إلى مواقفهم عارفين بمواضعهم من مسيرهم ومعسكرهم ، وليكن ترجلهم وتنزلهم على راياتهم وأعلامهم ومراكزهم ، وعرف كل قائد

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٠٥ .

وأصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ، ولا متهاونين بما أهبت بهم إليه ، حتى تكون عساكرهم فى كل منهل تصل إليه ، ومسافة تختارها كأنه عسكر واحد فى اجتماعها على العدة وأخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ونزولها على مراكزها ومعرفتها بمواضعها ، إن أضلت دابة موضعها عرف أهل العسكر من أى المراكز هى ، ومن صاحبها ، وفى أى المحل حلوله منها ، فردت إليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها ، فإن تقدمك فى ذلك وأحكامك له أطراح عن جندك مؤونة الطلب وعناية المعرفة وابتغاء الضالة ، ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك فى نفسك صرامة ونفاذا ورضاء فى العامة وانصافا من نفسه للرعية ، وأخذا بالحق فى المعدلة ، مستشعرا تقوى الله وطاعته ، آخذا بهديك وأدبك ، واقفا عند أمرك ونهيك ، معتزما على مناصحتك وتزيينك نظيرا لك فى الحال وشبيها بك فى الشرف وعديلا فى المواضع ومقاربا فى الصيت . . » إلى آخر الرسالة .

غير أن نظام التعبية لاقى معارضة من بعض دعاة الخلافة من أهل البيت الذين اعتبروا العدول عن نظام الصف إلى نظام الكراديس بدعة يجب إبطالها ، وظلوا فعلا على الزحف صفوفا .

حدث أن أرسل الخليفة المنصور عيسى بن موسى لمحاربة إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب فالتقيا بأخمرا[1] ، فأراد إبراهيم أن يحاربه زحفا بالصفوف، فأشار عليه بعض رجاله أن يجعل جنده كراديس « لأن الكراديس أثبت فى الحرب ، فإذا انهزم كردوس ثبت كردوس ، أما الصف فإذا انهزم بعضه تداعى سائره » ، ولكنه أصر على رأيه قائلا : « لا صف إلا صف أهل الإسلام » ودارت عليه الدائرة وخسر المعركة[2] .

وتفنن المسلمون فى نظام تعبية الجيوش بما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء بعد ترجمة كتبهم ، وتعددت ضروب التعبية حتى صارت سبع تعبيات ، وإن كانوا لم يستخدموها كلها .

الأولى : أن ترتب الجيوش بشكل هلال بسيط كهلال السماء .

الثانية : أن ترتب الجيوش بشكل هلال مركب يكون على جانبيه هلالان كأنهما جناحان .

الثالثة : أن ترتب الجيوش على شكل مربع مستطيل .

---

(١) مكان على بعد ١٥ فرسخا من الكوفة .

(٢) الكامل جـ ٥ ص ٣٢٩ .

الرابعة : أن ترتب الجيوش على شكل هلال مقلوب .

الخامسة : أن ترتب الجيوش على شكل المربع المنحرف أو المعين .

السادسة : أن ترتب الجيوش على شكل المثلث .

السابعة : أن ترتب الجيوش على شكل دائرة مزدوجة أى دائرة فى داخل أخرى .

* * *

واهتم المسلمون منذ عهد الرسول الكريم باستعراض الجيش الخارج إلى المعركة ، وكان النبى بنفسه يستعرض أصحابه ، وقد جاء فى السير أنه عليه الصلاة والسلام استعرض جنده فى بدر (سنة٢هـ) ، كما استعرضهم أيضاً عند فتح مكة ، وشهد هذا العرض أبو سفيان بصحبة العباس عم النبى ، وأدرك أن قريشاً لا قبل لها بجيش المسلمين فأعلن إسلامه، ثم توجه إلى مكة يدعو القوم إلى الدخول فى الإسلام .

وأقيم استعراض ضخم للجيش الإسلامى السائر إلى تبوك ، وارتقت نساء المدينة سقفها يشهدن الجيش الجرار وقد ثار النقع وصهلت الخيل ، وكان منظر الجيش مثيراً لبعض النفوس التى لم

تحركها دعوة الرسول فتقاعست ولم تتبعه ، فخرجت تتبعه كما حدث مع أبي خيثمة الذى قال لامرأتين له : « رسول الله فى الضح والريح والحر ، وأبو خثيمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم ، هيئا لى زادا حتى ألحق به » . ولقد فعل جماعة من الخوالف ما فعل أبو خثيمة بعد أن رأوا ما فى التقاعس والخوف من شنار ومذلة .

وفعل الخلفاء ما فعله الرسول الكريم فكانوا يعرضون الجند .

وفعل ذلك أيضاً خلفاء بنى أمية . . وكان الحجاج إذا عرض الجند يسأل عنهم رجلا رجلا ، من هو ؟ وما هى قبيلته ؟ ويسأل عن حاله وعن سلاحه .

واقتبس الخلفاء العباسيون نظام الاستعراض[1] من الفرس ، فكان الخليفة يجلس فى مكان يعد لعرض الجند . وكثيراً ما كان الخليفة يرتدى الدرع والخوذة وقت العرض ، وكان المنادى ينادى

---

(١) كان استعراض الجند معروفا قبل الاسلام فالاسكندر كان يعرض جنده بنفسه ويتفقدهم ويتفقد سلاحهم وخيولهم .. وكان الفرس يعرضون جنودهم فى مواقيت معينة فى السنة .. أما بعد الاسلام فقد اصبح عرض الجند عملا هاما تهتم به الدول حتى فى عصرنا الحديث .

بأسماء القادة فيمرون أمام الخليفة الذى يتفقد أفراسهم وعدتهم ، ثم يأمر لهم بجائزة كانت تسمى الأرزاق . نال عمرو بن الليث اعجاب الخليفة المعتمد فأمر له بثلثمائة درهم حملت إليه فى صرة فقبلها وهو يقول : « الحمد لله الذى وفقنى لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت عنه الرزق » .

ولم يكن للعرب فى الجاهلية جند ، ولهذا لم تكن لهم رتب . كانوا يولون على القبيلة الأمير ، وكان الأمير يرسل بدلا منه من ينوب عنه ويسمى المنكب .

ومع بداية العهد الإسلامى قسم الجند إلى عرفاء ، وكان العريف يقود عشرة رجال ، وازداد العدد فكان يقود ثلاثين أو أربعين وكان على العرفاء أمراء .

ولم يحدث تغيير فى رتب الجند فى أيام بنى أمية .

ولكن تطور الأمر بعض الشىء فى عهد العباسيين ، فأصبح العريف يقود عشرة ، وعلى كل عشرة عرفاء (أى مائة مقاتل) نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء (أى ألف مقاتل) قائد ، وعلى كل عشرة قواد (أى عشرة آلاف مقاتل) أمير .

ولم تكن لهذه الرتب علامات خاصة تميز أفرادها .

واستخدم المسلمون الرايات والألوية .

ولا فرق بين اللواء والراية ، وهى تشبه فى هذه الأيام الأعلام والبنود والبيارق .

وكان للراية أو اللواء فى الحرب شأن كبير ، لأن الناس كانوا يتدافعون تحتها ، ويحرصون على بقائها مرفوعة ، فإذا ظلت مرفوعة فإن النصر مازال فى جانبهم ، وإن زالت دل زوالها على الهزيمة .

وكانت الراية أو اللواء معروفة قبل الإسلام ، وكان منصب اللواء من أهم ما تفخر به قريش وقد سموا رايتهم العقاب اقتباساً من الروم الذين كانوا يرسمون العقاب أوالنسر على أعلامهم وينقشونه على أبنيتهم .

وفى بدر — أول غزوات المسلمين — كان للمسلمين ثلاث رايات احداها بيضاء حملها مصعب بن عمير ، والأخريان سوداوان حملها على بن أبى طالب ورجل من الأنصار ، وحمل حمزة ابن عبد المطلب لواء المسلمين فى حربهم ضد يهود بنى قينقاع ، وفى أحد كان للمسلمين أكثر من لواء فحمل أسيد بن حضير لواء

الأوس والحباب بن المنذر لواء الخزرج ، وعلى بن أبى طالب لواء المهاجرين ، ومصعب بن عمير اللواء الرابع .

وحمل على بن أبى طالب لواء المسلمين فى حرب يهود بنى النضير ، وحمل ابو بكر راية المهاجرين وسعد بن عبادة ، راية الأنصار فى غزوة بنى المصطلق ، وحمل زيد بن حارثة راية المسلمين فى مؤتة ، فلما قتل حملها من بعده جعفر بن أبى طالب ، فلما قتل حملها عبدالله بن رواحة.

وكانت راية النبى سوداء اللون ، وذكرت بعض المراجع أنه كانت له عليه السلام ألوية بيضاء .

واختلفت ألوان الألوية بعد ذلك ، فكانت أعلام بنى أمية حمراء ، بينما كانت أعلام الدولة العلوية بيضاء ، وكانت ألوية بنى العباس سوداء ، وقد اتخذوا هذا اللون حزنا على شهدائهم من بنى هاشم ونعيا على بنى أمية فى قتلهم ، ولهذا سموها السوداء . ولما بايع المأمون لعلى بن موسى بولاية العهد أمر بطرح السواد ولبس الثياب الخضر وأصبحت راياتهم خضراء. أما فى المغرب العربى: فقد أصبحت الرايات من الحرير الأحمر ، وقد كتبت عليها آيات قرآنية. أما فى العهد العثمانى: فقد اتخذت راية واحدة للسلطان في أعلاها خصلة من الشعر

تسمى الشالش ، ثم تعددت الرايات وسميت سناجق وكانت حمراء اللون عليها صورة الهلال .

عقد أبو سلمة الخرسانى عندما بدأ الدعوة العباسية لواء بعث به إليه إبراهيم الإمام على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً ، كما عقد راية اسمها السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً .

ولما عقد المتوكل البيعة لبنيه عقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما أسود والآخر أبيض وعندما ولى الخليفة المأمون الفضل ابن سهل على المشرق جعل له لواء على سنان ذى شعبتين وقد بلغ عدد رايات العزيز بالله الفاطمى خمسمائة راية .

وكان الخلفاء فى صدر الإسلام يعقدون الألوية للأمراء . . وكان عمر بن الخطاب إذا عقد لواء يقول وهو يعقده : « بسم الله وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ، ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليداً » .

ولما كان العامل هو قائد الجند فقد كان الخليفة يعقد له اللواء .

وكان للدولة الفاطمية دار تسمى « خزانة البنود » تخزن فيها الأعلام والرايات وكانوا ينفقون عليها ثمانين ألف دينار كل عام .

وكانت للجيش الإسلامى أول عهده نداءات خاصة يصدرها القادة للجند . . فكانوا إذا تهيئوا للقتال نادى القادة : « النفير . . النفير » وهى علامة الهجوم . . وإذا أرادوا ارجاع الجند نادوا فيهم « الرجعة . . الرجعة . . الرجعة . . » وإذا أرادوا ركوب الخيل نادوا : « الخيل . . الخيل » وإذا أرادوا أن يترجلوا نادوا « الأرض الأرض » .

وكان النداء الغالب الذى يربط الجند بالقادة هو نداء : « الله أكبر » ، فكم من قائد مسلم استخدم التكبير عند الهجوم كما حدث فى الهجمات المتعددة التى قام بها الجند المسلمون فى مصر وفى بلاد الفرس . . فعندما طالت مدة حصار حصن بابليون وبلغت سبعة أشهر ضاق العرب بهذا الحصار ، وكان الزبير بن العوام أشدهم حماسة وأكثرهم على الموت إقبالا ، فقام فى الناس وقال : « انى أهب نفسى لله وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » وآزرته كتيبة تحت جنح الليل ، فاقترب من جدار الحصن ، ووضع سلماً على السور وعلاه ، دون أن يفطن إليه أحد بعد أن اتفق مع أصحابه

أن يرقوا السلم إليه وأن يجيبوه إذا سمعوا تكبيره ، واستوى فوق الحصن وانطلق يكبر ، وتبعه أصحابه فصعدوا الصور ، وكبروا معه وأجاب المسلمون من خارج الصور تكبيرهم ، ثم هوجم وسقط » .

وفى يوم أرماث وهو اليوم الأول فى قتال القادسية ، أرسل سعد فى رجاله : « إذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم ، فإذا كبرت الثانية فتهيئوا ، فإذا كبرت الثالثة فشدوا النواجز على الأضراس واحملوا » .

ثم أمر بقراءة سورة الجهاد فقرئت فى كل الكتائب والمواقع وبعد انتهائها كبر سعد وكبر وراءه الذين يلونه ، ثم كبر الثانية وعندما كبر الثالثة كانت النفوس قد تهيأت للقتال ، واشتدت الرغبة فى النزال وبدأ الصراع عنيفاً ، وكان أول الخارجين من جيش المسلمين غالب بن عبد الله الأسدى الذى أسر هرمز وهو ينشد :

فقد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح

ولما تقدم المسلمون وتنوعت حركاتهم فى الحرب جعلوا لكل حركة نداء خاصاً ، يدل لفظه على المراد به مثل « الميل . . الانقلاب

الانفتال . . تسوية الانفتال . . استدارة صغرى . . استدارة كبرى استدارة مطلقة . . رجوع إلى الإستقبال . . اتباع الميمنة . . اتباع الميسرة . . » فكان القائد إذا أراد أن يميل جنده إلى جهة أو أن يتخذ شكلا خاصاً أو أن يقوم بحركة معينة ناداه بكلمة من هذه الكلمات .

وكانت للمسلمين شعارات خاصة يتعارفون بها أثناء القتال ، وكان شعار المجاهدين « يابنى عبد الرحمن » وشعار الأوس « يابنى عبيدالله» وشعار الخزرج « يا بنى عبد الله » وشعار الخيل « خيل الله » .

ويأتى فى مقدمة عوامل التنظيم للمعركة وجود صلة دائمة بين القيادة العليا فى المدينة وقيادة القوات فى الميدان ، هذه الصلة التى تقوم أساساً على الاحترام المتبادل والتقدير والطاعة . فقد كان القائد الأعلى يعيش مع قواته المحاربة باحساساته ومشاعره ، كأنه يعيش معهم فى الميدان ، يبعث إليهم بنصائحه وآرائه ، ويكتبون إليه بكل ما يجرى ، وينقلون إليه صورة المعركة .

وكانت القيادة العليا تبعث إلى قيادة القوات برسائل فيها الرأى والنصيحة والتوجيه ، ومن هذه الرسائل نعرض هنا رسالتين هامتين بعث بالأولى أبو بكر الصديق إلى خالد وكان قائداً للواء الأول الذى

كلف بقتال طليحة ومالك بن نويرة ، وبعث بالثانيه عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص قائد المسلمين فى العراق .

جاء فى الرسالة الأولى :

« .. ياخالد .. عليك بتقوى الله وإيثاره على من سواه ، والجهاد فى سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فان معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أهل السابقة من المهاجرين والأنصار ، فشاورهم فيما نزل بك ، ثم لاتخالفهم ، فاذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا عن الحملة ، فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالادلاء ، وقدم أمامك الطلائع ، ترتدلك المنازل ، وسر فى أصحابك على تعبية جيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولاتقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة ، وأقلل من الكلام وأقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله فى سريرتهم ، وإذا أتيت مصليا فامسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة ، فإن لم تسمع آذانا ولم تر مصلياً شن الغارة فاقتل وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، حتى إذا أسلموا وأعطوا الصدقة ،

فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع ، وإذا لقيت أسدا وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا لك ولا عليك ، متربص دائرة السوء ، ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم فانه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفاك الله الضاحية ، فامض إلى أهل اليمامة ، سر على بركة الله » .

وتستوقف نظر الباحث فى هذه الوصية أمور جديرة بالتمييز والتسجيل ، فالقائد الأعلى يدعو قائد قوته إلى رعاية جنده والرفق بالرعية دستور الحكمة السامية فى سياسة الجند ، والعروة الوثقى بين القائد وجنده ، تربط قلوبهم بقلبه ، وتمد أبصارهم إلى مواقع بصره ، وتنيط طاعتهم بإشارته واقدامهم بأمره .

والقائد الأعلى يأمر قوته بمشاورة أهل الرأى فى جيشه عند الملمات ، والمشاورة دستور الاسلام وقاعدة نظام الحكم فى دولته .

والقائد العام يحذر قائد قوته من جحافل عدوه ومراكز قوته ، ويدعوه أن يبحث عن مواطن الضعف فى قوى العدو فيأخذه من جوانبها .

وهو يدعو قائد قواته إلى تدبير الشئون الإدارية لجنده ، فلا يشغلهم ذلك عين واجبهم فى المعركة ، ويأمره أن يستظهر بالزاد ، وأن يسير بالادلاء ، وأن يقوم بالاستكشاف .

وقد عرفت الحروب الحديثة وهى أشد تعقيدا من حروب العرب أن تكوين الجيوش وتوفير الغذاء والذخيرة والسلاح أهم أسباب النصر والظفر على الأعداء ، وقد أثر عن نابليون قوله : إن الجيوش تمشى على بطونها ، هذا فوق أن الحرب الحديثة أصبحت تعتمد على الاستكشاف الذى قصده أبو بكر فى قوله : « سر بالأدلاء وقدم أمامك الطلائع » ، وهو من أعظم فنون الحرب الحديثة فعلى أساسه ترسم الخطط فى الهجوم وفى الدفاع .

والقائد العام يدعو قائد قواته إلى أن يسير إلى عدوه فى تعبية جيدة ، فينظم مواقع الجند ويحدد أهداف كل وحدة وواجباتها ، ويرسم خطة التعاون ، حتى يستطيع أن يدير دفة المعركة فى حذق ومهارة وحزم .

والقائد العام يدعو قائد قواته إلى التمسك بالفداء فى سبيل العقيدة حتى لا يعترى جنده الجبن ، ولا يقعد به الفزع ، ولا يرده التثبيت بالحياة عن الأقدام ، فيقدم إلى عدوه قويا ثابت الجأش رابط الجنان .

وهو يطلب من قائد قواته أن يمنع الجرحى من القتل ، ويدعوه

إلى العناية بهم فلا يحاربون وهم يألمون من جراحهم لأنهم يكونون عبئا على الجيش .

وهو يحذر قائد قواته من عامل المفاجأة ، ويدعوه إلى تعزيز الحراسة حتى لا يأخذه عدوه على غرة ، فالمفاجأة ذات أثر سيء على المقاتلين .

وهو يشير إلى أهمية السرية والأمن وضرورة المحافظة على تحركات جيشه ، ويطلب منه عدم تسرب أية معلومات عن جيشه إلى عدوه ، حتى لا يستفيد منها وتضيع فرصة كان فى انتهازها مصلحة له ولجيشه ولا شك فى أن ثرثرة القادة وانطلاق ألسنتهم من أفدح وأخطر العيوب التى يجب تجنبها وعدم الوقوع فيها .

وهو ينصح قائد قواته بأن يرقب الناس وأن يكون نافذ البصيرة وأن يحسن معاملة جنده وأن يعتمد على الله فى قتاله . .

هذه هى رسالة أبى بكر .

أما الرسالة الأخرى فبعث بها الخليفة عمر بن الخطاب إلى قائد قواته فى العراق سعد بن أبى وقاص جاء فيها .. «إنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا

اشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإنذ نوب الجيش اخوف عليهم من عدوهم وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإذا استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، والا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيو امنهم ولا تعملوا بمعاص الله ، وانتم فى سبيل الله واسألوا الله العون على انفسكم كما تسألونه العون على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم . وترفق بالمسلمين فى سيرهم ولا تجشهم سيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقض قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع . . واقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها انفسهم ويرمون اسلحتهم وامتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى اهل الصلح والذمة فلا يدخلها من اصحابك الا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من اهلها شيئا فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فإن صبروا لكم فتولهم خيرا ولا تستنصروا على اهل الحرب بظلم اهل الصلح . وإذا وطئت ارض العدو فاذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك امرهم وليكن عندك

من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك فى بعضه، والغاش عين عليك وليس عينا لك، وليكن منك عند دنوك فى ارض العدوان تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم وتنق للطلائع اهل الرأى والبأس من اصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فان لقوا عدواً كان اول ماتلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص بها احدا تهوى فتضيع من رأيك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية. فإذا عاينت العدو فاضمم إليك اقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الارض كلها كمعرفة اهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك.. ثم اذك أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك.. والله ولى أمرك ومن معك وولى النصر لكم على عدوكم، والله المستعان والحمد لله رب العالمين».

وفى هذه الرسالة يضع الخليفة عمر بصفته القائد العام لقوات المسلمين دستورا للحرب ويقدم لقائد قواته مبادىء خالدة لا يحيد عنها ويلتزم بها.

فالقائد العام يطلب من قائد قواته أن يتقى الله فتقوى الله قوة تساعد على العدو وتعين على مواجهته ، تزيد الإيمان وتثبت العقيدة وتدفع إلى النصر الذى وعد الله به المجاهدين .

والقائد العام يأمر قواته أن يبتعد وجنده عن المعاصى ، فإن النصر على العدو يكون نتيجة لطاعة الله ، أما العدو الذى يعصى الله فإنه عدو ضعيف لا يلتزم بخلق ولا ينتهج سبل التقوى والإيمان ، فتضعف عنده الرغبة فى القتال وتهن عزيمته فتسهل هزيمته .

والقائد العام ينصح قائد قواته أن يستعين بالله لتخلص نياتهم وتصفو مشاربهم وترقى عواطفهم فيتميزون بذلك على عدوهم .

والقائد العام يضع دستورا لتحرك الجند إلى ميدان المعركة ، فهو يوصى قائد قواته أن يترفق بالجند فلا يحملهم مالا طاقة لهم به ، ولا يجشمهم سيرا يؤثر فى امكانياتهم ، وذلك حتى يصلوا إلى الميدان وهم فى راحة دون جهد ، وفى حالة نفسية غير مرهقة ، لانهم يتحركون لمواجهة عدو قابع فى أماكنه ، لم يبذل جهدا ولم يتطلب الامر انتقاله . وهذا هو ما تتبعه القيادات فى حروب اليوم فتحرص على عدم اجهاد الجند قبل المعركة ، ولهذا أنشئت المركبات ووسائل الانتقال التى

تحمل الجند من مراكز التجمع إلى اماكن القتال دون جهد أو ارهاق ، فيكونون فى حالة تساعدهم على دخول المعركة وقواهم موفورة . ولهذا أيضا طلب القائد العام أن يمنح الجنود راحة اسبوعية يجددون فيها نشاطهم ويصلحون سلاحهم ، ويعدون أنفسهم لمرحلة قادمة فيها عنف وشدة . وهو لهذا أيضاً وحرصا على راحة الجند يطلب أن يكون مقامهم فى مكان بعيد عن قرى أهل الصلح والذمة وأن يمنع اختلاط الجند بهؤلاء .

والقائد العام يوصى قائدقواته بعدم التعرض بالايذاء لأهل الصلح والذمة وبعدم التعرض لما لهم فلا يستعين به فى محاربة الأعداء ، لأن لهولاء حرمة ، ولأن المسلمين أمروا بالوفاء بالعهود .

والقائد العام يبرز فى رسالته أهمية استكشاف مواقع العدو ، بقصد الوقوف على أخباره ومعرفة مواطن الضعف أو القوة فيه ، فيطلب من قائد قواته أن يستعين بالعيون الصادقة المخلصة التى تنقل ما تراه دون تعديل أو تغيير ، والاستكشاف من أهم وأخطر العمليات التى تتم فى حروب اليوم ، ولقد أعطت القيادات لهذه العملية غاية عنايتها وتقديرها ، وتكلف جماعات متمرسة للقيام بها تسمى جماعات الاستكشاف ، وهى التى كان المسلمون يطلقون عليها اسم «العيون» .

ثم تحوى رسالة القائد العام بعد ذلك المبادىء الهامة التالية . .

ضرورة تحطيم مرافق العدو أو قطع خطوط مواصلاته ومنع العون أو المدد عنه ، وهذه خطوة ذات أهمية بالغة فى وقت القتال ، فسلامة خطوط الموصلات تعنى سلامة القوات ، لأنه عن طريقها تصل الامدادات ويتم الاتصال بالقيادات ، وقطع هذا الاتصال يؤدى إلى عواقب وخيمة ونتائج خطيرة ، ولقد كان المسلمون حريصين على بقاء هذه الخطوط سليمة ، وعن طريقها كانت تصل توجيهات القيادة العامة ، وكانت تصل الامدادات التى كان يتطلبها الموقف فى الميدان .

عدم ارسال السرايا إلى أماكن غير معروفة أو مدروسة يخاف عليها فيها الهزيمة أو الضياع ، ولهذا كان المسلمون يقومون بدراسة المناطق ومعرفة أسرارها ، حتى لا يتورطون فى منطقة يعرف العدو كل شبر فيها ويجهلونهم ، ولهذا نصح القائد العام قواته بأن تطيل مدة البقاء فى أرض العدو لان ذلك يزيد الخبرة بها .

عدم البدء بالعدوان ، وهذه سياسة عامة رسمها الإسلام ، وجعلها مبدأ من مبادىء القتال ، الا فى حالة الاكراه على البدء به فإذا ماوقع العدوان وجب على قائد القوات أن يحشد جموعه وأن يلقى عدوه فى كثافة عددية .

الاستعانة بالله والتوجه إليه ومداومة مناشدته تعالى النصر والتأييد . ورسائل القيادة العامة إلى قيادات القوات كثيرة لم تنقطع طالما كان هناك قتال . .

وكانت القيادات العامة تسرع دائما إلى توجيه النصح والارشاد وتشارك فى وضع الخطط وتسهم برأيها فى الموقف العسكرى . وكان التفاهم واضحا ميسورا بين القيادتين . .

ومجال الكتاب هنا لا يسمح بعرض هذه الرسائل، فهى وحدها فى حاجة إلى كتب كثيرة ، وهى منشورة فى المراجع التى تتناول تاريخ الإسلام وتاريخ حروبه ويمكن الرجوع إليها ، ولهذا فنحن نكتفى بهاتين الرسالتين راجين أن يكون فيهما ما يفى بغرض التعرض لهما فى هذا الكتاب .

الباب الثانى

تقـــدير الموقف

يجب أن تكون لدى القائد معلومات وافية عن عدوه ، وعن الأرض التى ستدور فوقها المعركة ، وعن الظروف الجوية التى تسود ميدان المعركة .. ان هذه المعلومات توحى اليه بالخطة التى يلاقى بها عدوه .

إن القيادات الناجحة الموفقة هى التى تدرس ظروف المعركة قبل أن تخوضها . وظروف المعركة من وجهة النظر العسكرية تعنى أشياء كثيرة .

فإن الجيش — أى جيش — يدخل المعركة بخطة تضعها القيادة .. وهذه الخطة لا توضع وضعا ارتجاليا ، وإنما على أسس مدروسة ومعلومات يشترط فيها أن تكون صحيحة وسليمة وحقيقية .

فالقائد يجب أن تكون لديه معلومات وافية عن عدوه وعن الأرض التى ستدور فوقها المعركة ، وعن الظروف الجوية التى تسود مكان القتال . . فيجب مثلا أن تتوفر لدى القائد معلومات عن عدد العدو ونوع سلاحه وأسلوبه فى القتال وحلفائه الذين ينضمون إليه خلال المعركة . . ويجب مثلا أن يعرف القائد طبيعة الأرض التى سيلتقى فوقها بعدوه . . . هل هى مستويه أم هى جبلية . . هل هى صحراوية أم هى زراعية . . هل بها أنهار يجب أن يوضع فى الاعتبار اجتيازها ؟ .

هذه المعلومات توحى إلى القائد بالخطة التى يلاقى بها عدوه ، وتضع أمامه صورة واضحة عن الجانب الآخر فى القتال .

كانت القيادات قبل الاسلام لاتهتم بهذه المعلومات ، بل كان همها الأكبر قاصرا على جمع الجموع وحشد الحشود ، وكانت الجيوش الكثيفة عددا وعدة تسير وراء قائدها دون هدف أو غاية سوى الفتح والسلطه والسيطرة واخضاع الغير . . وكان سبيلهم إلى ذلك هو الكثرة العددية دون اهتمام بتوجيه الحرب من دراسة وفهم وتقدير .

ولما جاء الاسلام اختلفت الصورة واحتل الفن العسكرى مكانه فى تفكير القادة ، وأصبح دخول المعركة يتطلب عمقا فى الدراسة وفهما للموقف وتقديرا للظروف ؛ وبالرجوع إلى التاريخ الحربى الاسلامى نجد أن القيادات الإسلامية أولت هذه الدراسة غاية اهتمامها فلم تقرر خطة الا على أساس سليم من المعلومات وبعد تقدير صائب للموقف العسكرى .

فعن العدو : كان الرسول عليه السلام حريصا على جمع كل معلومات تفيد عنه ، وأخذ عنه خلفاؤه وقادة المسلمين فى عهود ما بعد رسول الله هذا الحرص ، حتى أصبح جمع المعلومات يمثل الجانب الأكبر بل الأهم والأخطر فى تفكير القادة على مختلف مستوياتهم .

ففى بدر بعث الرسول بعلى بن أبى طالب ومعه الزبير بن العوام

وسعد بن أبي وقاص يلتمسون له الخبر عن قريش ، ويجمعون له مايستطيعونه من معلومات عنها فأصابوا غلامين يدعى أحدهما : أسلم ، وهو غلام بني الحجاج من سهم ، والثاني أبو يسار ، وهو غلام بني العاص من أمية ، فلما حضرا بين يديه عليه السلام تولى استجوابهما بنفسه فكان يسأل وهما يجيبان .

— كم القوم ؟

— كثير عددهم شديد بأسهم .

— كم عدتهم ؟

— لا ندري

كم تنحرون من الجزر كل يوم ؟

— يوما تسعا ويوما عشرا .

ويبدو من أسئلة الرسول أنه عليه السلام كان يريد أن يعرف عدد عدوه وعدتهم .

ويبدو أيضا أن الرسول اهتم بهذه المعلومات وبخاصة حين عرف من الغلامين أسماء بعض الخارجين ، فقد التفت إلى رجاله قائلا « هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ كبدها » .

وكان الرسول حريصا على أن يعرف موعد وصول قافلة أبى سفيان ، ولهذا بعث باثنين من الصحابة هما بسبس بن عمرو ، وعدى ابن الزغباء يجمعان له الأخبار ، فمضيا إلى بدر حيث سمعا حوارا بين جاريتين من جوارى العرب، قالت واحدة للأخرى : « إنما تأتى العير غدا أوبعد غد » وكان بجوارهما أعرابى يقال له مجدى بن عمرو « فصدقهما فيما قالتا . . وعاد المبعوثان إلى الرسول يخبراه بموعد القافله المنتظر .

وكذلك فعل عمرو بن العاص فى فلسطين فقد اهتم بجمع معلومات عن عدوه ، حتى أنه سعى بنفسه إلى مواطن العدو ليحصل على المعلومات التى يريدها ، معرضا نفسه لخطر الاسر أو القتل ، فقد دخل حصن عدوه على أنه جندى عربى يحمل رسالة إلى أرطيون الروم ، ودرس الحصن وعرف أسراره وطرقه ومواطن الضعف فيه ، ثم وضع خطة احتلال الحصن بناء على هذه المعلومات التى حصل عليها ، حتى أن أرطيون قال « خدعنى الرجل إنه أدهى الخلق جميعاً « وكان قول أرطيون أبلغ إجابة على ماقاله عمر لأصحابه » قد رمينا أرطيون الروم بأرطيون العرب فانظروا عما تنفرج » .

ولا شك فى أن حضور عمرو بن العاص إلى مصر فى جاهليته

كان له أثر كبير فى معرفته بأحوال مصر وأخبارها وطرقها ومسالكها ، وكانت المعلومات التى تجمعت لديه ذات فائدة كبيرة عند عودته إلى مصر على رأس الجيش الاسلامى ، فما أثبتته كتب التاريخ وأجمعت عليه ، أن جيش عمرو دخل مصر من ذات الطريق الذى قطعه عمر ومع الشماس الذى رافقه في زيادة مصر .

وقام المثنى بن حارثة الشيبانى بدراسة واسعة لأحوال العراق قبل أن يفكر فى غزوها ، واستطاع من دراسته أن يعرف مواطن الضعف ، وأن يدرك سوء الحالة الاجتماعية فى داخل العراق ، وأن يقف على المنازعات الحامية المستمرة بين ملوك الحيرة طمعا فى الملك ورغبة فى الرئاسة ، وكانت هذه الدراسة من أهم العوامل التى عقدت له لواء النصر .

وعندما استأذن موسى بن نصير الخليفة للسير إلى بلاد الأندلس بعث إليه الخليفة يقول :

خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال » وعاد الخليفة فكتب إليه : « لابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه » وكان موسى يريد أن يجتاز بالمسلمين البحر ليصل إلى الأندلس ، ولم يشأ الخليفة أن يجعل الأمر

مخاطرة ، ولكنه أراد أن يكون دراسة وفهما لطبيعته حتى لا يلقى بجنده فى مهلك .

وظلت عيون صلاح الدين الأيوبى تدرس بيت المقدس وأسواره خمسة أيام متتالية حتى توصلت إلى اكتشاف ثغرات فى جبهته الشمالية المعروفة بباب كنيسة صهيون ، فحرك الجند إلى هذه الثغرات ، وكان الهجوم الذى اعتمد أساسا على معلومات العيون .

ومن زاوية أخرى فقد اهتم الرسول الكريم بأن يجمع المعلومات اللازمة عن أرض المعركة ، وكذلك اهتم القادة من بعده ، وليس أدل على ذلك مما حدث فى غزوة أحد ، فإن الرسول الكريم عند خروجه إلى أرض المعركة قام بدراستها فرأى أن يستفيد المسلمون من وجود الجبل ، فقرر أن يجعله إلى ظهره ليحمى المسلمين من الخلف ، واختار الرسول خمسين من الرماة ، ووضعهم على شعب فى الجبل وأمرهم « أحموا لنا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئونا من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا أماكنكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا » ولم يكن بعض الرماة على مستوى التقدير العسكرى لأهمية الجبل فخالفوا تعاليم الرسول فكانت هزيمة المسلمين .

والمثنى بن حارثة تقديراً منه لخطورة عبور الأنهار نصح أبا عبيد ، ابن مسعود بعدم عبور النهر حين بعث إليه بهمن جاذويه فى الجسر يقول : « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم ؟ » ولم تكن لدى أبي عبيد معلومات واضحة عن عبور الأنهار ، ولهذا لم يستمع إلى رأى المثنى « لا تعبر يا أبا عبيد . . إننا ننهاك عن العبور » وصمم على العبور قائلا : « لنقطعن الفرات إليهم » وأمر الجيش بالعبور ، وهاجمهم الفرس خلاله ، وكانت الهزيمة المرة فى الجسر ولم يقع المثنى فى هذا الخطأ حين طلب منه مهران قائد الفرس أن يعبر أحد الطرفين إلى الآخر فبعث إليه « اعبروا إلينا » ونجح المثنى فى أن يثأر لقتلى الجسر بانتصاره العظيم فى موقعة البويب .

إن القائد الناجح يقدر أثر الجو على التعليمات ، ولقد فشلت الجموع الكبيرة التى حاصرت المسلمين فى الخندق ، لأن قيادتهم لم تدرس الجو ، ولم تكن لديها معلومات عنه . . فلقد تجمعت قريش وحلفاؤها حول المدينة فى جموع عديدة لا حصر لها ، أفزعت المسلمين وزلزلت قلوبهم مصداقا لقوله تعالى : « إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا

شديداً[1] » . . فلما كان الليل عصفت ريح شديدة وهطل المطر غزيرا وقصف الرعد ، ولمع البرق ، واقتلعت الريح خيام الأحزاب وكفأت قدورهم ، فقام طليحة بن خوليد ونادى « إن محمداً قد بدأ كم بشر ، فالنجاة النجاة » وقال أبو سفيان : « يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف . . ولقينا من شدة الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل » .

هذه الظروف المناخية لم يكن لدى قريش أية معلومات عنها ، ولهذا فوجئت بها دون أن تعد نفسها لمواجهتها ، وهذا الجهل بطبيعة الجو كان من عوامل الهزيمة التى لحقت بها . . لهذا اهتمت الجيوش الحديثة بدراسة المناخ وطبيعة الجو ، وتوضع هذه الدراسة موضع الاعتبار عند وضع الخطة .

ولقد حدث موقف مماثل فى بدر إذ أرسلت السماء سحباً مثقلة حافلة بالغيوث الثقيلة ، فصبت أثقالها على الطرفين المتقاتلين ، وتحولت الأرض التى يسير عليها المشركون إلى أوحال وأغوار ، وأصبح من العسير عليهم أن يتقدموا ، فكلما انتزعوا قدما أو رجلا

---

(١) سورة الأحزاب ١٠ .

غاصت قدم ورجل .. أما أرض المسلمين فقد أصابتها أطراف السحب بمطر خفيف ، وكانت أرضهم رملة فتلبدت الأرض تحتهم ، وسهلت لهم مضاعفة السير ، فساروا وهم فى بهجة وانتعاش بينما تعثر المشركون .

وهكذا تكون القيادة العسكرية الإسلامية سباقة فى إقرار مبدأ هام وقاعدة رئيسية قبل الدخول فى المعركة ، ولكنها فى ذات الوقت لم تنس شيئاً هاما ، فإنها قد قدرت أن العدو الذى تجمع عنه المعلومات قد يتخذ هو الآخر مثل هذه الخطوات فيسعى هو الآخر إلى جمع المعلومات عن جيش المسلمين ، ولهذا فرضت السرية على جميع أعمال المسلمين وفى مقدمتها الحرب .. وأصبح قول النبى : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » شعاراً للمسلمين فى كل ما يأتون من أعمال .

ولقد نبه الرسول الكريم إلى ضرورة اتخاذ السرية فى التجمع والتحرك حتى لا تكون لدى العدو فرصة يجمع فيها معلومات عن الجيش الإسلامى يستخدمها ضدهم .

وإذا كان جمع المعلومات سلاحا ذا حدين فإن المسلمين قد أبطلوا أحد حديه وأفسدوه بإتباعهم السرية فى تحركاتهم العسكرية .

فعندما أراد الرسول عليه السلام أن يبعث سرية بقيادة عبد الله ابن جحش بن رئاب الأسدي ، كتب كتابا مقفلا إليه ورسم له طريق سيره ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ، ويمضي لما أمره به ، وكان يهدف بذلك إلى كتمان أمر التحرك حتى لا يعرف قبل أوانه ، ومضى القائد بأصحابه ثم فتح الكتاب بعد مسيرة يومين في الاتجاه الذي أمر أن يسير فيه :

« إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً » . وما زال هذا الأمر — إخفاء تحركات الجيوش — متبعا في الحروب الحديثة .

وفي غزوة الفتح دعا الرسول عليه السلام أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف من سيرهم على نبأ : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش » ، وأمر عليه السلام بحراسة الطرق إلى مكة ، والقبض على كل من يستراب فيه ، وكلف عمر بن الخطاب بأن يشرف على الحراسة : « لا تدعوا أحداً يمر بكم إلا رددتموه » .

وفي هذه الغزوة فشلت محاولة حاطب بن أبي بلتعة حين أراد أن يبلغ قريشاً بتحرك الرسول إليهم ، فقد بعث بكتاب مع امرأة

تسمى سارة استأجرها بعشرة دنانير ، وقال لها : « أخفيه ما استطعت ولا تمرى على الطريق ، فإن عليه حرساً » ، وعلم الرسول بأمر الكتاب ، وكان فيه : « إن الرسول قد أذن فى الناس بالغزو ولا أراه يريد غيركم » فبعث علياً والزبير والمقداد خلف المرأة فانطلقوا وراءها وأخذوا منها الكتاب وكانت قد أخفته فى شعرها .

ونهج القادة المسلمون منهج الرسول الكريم .

روى ابن حيان أن جند عمرو فى ذات السلاسل طلبوا منه أن يأذن لهم فيوقدوا نارا ليصطلوا عليها من البرد فمنعهم ، وأنكر عليه ذلك عمر بن الخطاب ، وكان أحد جنده فتشاور مع أبى بكر فقال له : « دعه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه علينا إلا لعلمه بالحرب » واعترض عليه بعض المسلمين فقال لهم : « لا يوقد أحد ناراً إلا قذفته فيها » ، وشكاه المسلمون إلى رسول الله فقال : « خفت أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين لأعدائهم وهم قلة فينقضوا عليهم » .

وكان من أهم وسائل حجز المعلومات عن العدو حرص القادة المسلمين على أن يكون تحرك قواتهم ليلا وليس نهاراً إمعانا فى إخفاء

تحركاتهم عن العدو ، فلا يعرف شيئاً عنهم ، ولا تتجمع لديه من المعلومات ما يكون سنداً له ضدهم .

* * *

إذا كان القائد قد أعد نفسه للمعركة . . أعنى قد جهز جيشه بأفراده المقاتلين وبالسلاح الضرورى اللازم للمعركة .

وإذا كانت قد تجمعت لديه المعلومات الكافية المفيدة عن عدوه . . عن رجاله وعددهم وتسليحهم وأساوب قتالهم . . وعن مكان المعركة وظروفها .. فإن دخوله المعركة يتطلب اتخاذ خطوة هامة هى تقديره للموقف العسكرى . . هذا التقدير الذى ينتهى عادة بالخطة التى سيتبعها الجيش خلال القتال .

والمتتبع لتاريخ الحروب السابقة على العهد الإسلامى يلحظ أنه لم يكن هناك تقدير للموقف على الصورة التى وضعها الرسول الكريم ، وفى الاطار الذى صنعته القيادة العسكرية الإسلامية .

فما لا شك فيه أن الحروب التى نشبت قبل الإسلام تمت فى ضوء خطط وضعها القادة ، ولكن هذه الخطط لم تكن على مستوى العمق المطلوب فى الدراسة والتحضير ، فقد كان القائد يضع خطته على

أساس ما تجمع تحت امرته من رجال وسلاح ، وكانت الكثرة العددية فى مجموع الجيوش وفى الجيش الواحد هى محرر هذه الخطة ، فعندما تقابل هانيبال مع الرومانيين عند مصب نهر بو اعتمد فى خطته على كثرة حشوده ، فقسم جيشه إلى قسمين يهاجم أحدهما العدو ثم ينسحب أمامه ويبقى الآخر كمينا يهاجم العدو من الخلف أثناء مطاردته للقسم المنسحب الذى يعود إلى مهاجمته ، ولو كانت القوة التى يقودها هانيبال ليست على مستوى هذا الحشد الكبير ما استطاع أن يقسم جيشه أو ينفذ هذه الخطة .

وبالرجوع إلى كتب التاريخ ومصادره نلحظ أنه ما من قائد قبل الإسلام وضع خطة القتال بعد دراسة لظروف المعركة وأحوالها ، وبذلك يكون الإسلام هو أول من اهتم بتقدير الموقف ، وخاصة أننا نعلم أن عدد المسلمين كان دائماً أقل بكثير من أعدائهم سواء فى الجزيرة أو فى الشام أو فى العراق أو فى مصر وشمال أفريقيا أو فى بلاد آسيا .

وأصبح تقدير الموقف عملا رئيسياً قبل الدخول فى المعركة .. هذا مبدأ قرره الإسلام ثم اقتنعت به القيادات الواعية الفاهمة التى جاءت من بعده ، فأولته اهتمامها وعنايتها .

ولعل خير ما يذكر فى هذا المجال ما جاء فى كتاب « تاريخ الحروب فى العالم » الذى وضعه الفيلد مارشال لورد مونتجمرى . . فقد ذكر المؤلف فى خلال حديثه عن نابليون — وهو على رأس القيادات العسكرية الفرنسية وقائد لا يدانيه كثيرون ولا يفوق عليه أحد — ذكر أن قدرة نابليون الاستراتيجيه الفائقة كانت ترجع إلى أنه كان يضع خططه على أساس المعلومات التى يقدمها له أركان حربه برياسة برتييه وكونت دارو ، وأنه كانت تسبق كل حملة مرحلة من التنظيم والبحث الدقيق وأن الاستعداد الطويل والتدبير المحكم الذى يسبق حملاته كان شيئاً حيويا فى رأيه لنجاح المعركة .

وما زال تقدير الموقف يحتل مكان الصدارة فى تفكير قادة الحروب الحديثة ، ولقد سجلت كتب التاريخ الحديث أحداث هذه الحروب وناقش واضعوها تقدير الموقف فى كل معركة وسلطوا الأضواء عليها . . وكانت قيمة ومقدرة القائد تقدر أساساً على حسن تقديره للموقف ثم انتهائه إلى وضع الخطة .

ومن أمثلة تقدير الموقف فى العهد الإسلامى تقدير الرسول الكريم للموقف العسكرى فى أول معركة خاضها مع أصحابه من

المهاجرين والأنصار ، ونعني بها غزوة بدر ، والأمثلة كثيرة لأن المسلمين في عهد الرسول ، وفي عهد ما بعد الرسول لم يدخلوا معركة إلا بعد أن قام قادتهم بتقدير صائب للموقف جعلهم قادرين على وضع خطط محكمة سليمة تضمن النصر وتحققه .

ونحن نقدم فيما يلي مثالا لتقدير الموقف :

تقدير الموقف في بدر

الموقف العـام :

١ — بلغ رسول الله أن قريشاً جمعت أموالها للتجارة بعد سرية عبد الله بن جحش ، فلم يبق أحد من أهل مكة إلا وقد اشترك فيها على قدر ما يطيقه ، حتى قدر ما جمعته قريش بعشرات كثيرة من ألوف الدنانير ، ولم يتخلف عنها والاشتراك في تجارتها بطون بن كعب بن لؤى كلها وهم من تتألف منهم قريش مكة كلها .

وحملت هذه التجارة على عير تتألف من ألف بعير عليها أبو سفيان بن حرب بن أمية وهو رجل حذر داهية يعتمد عليه ، وكان معه ثلاثون أو أربعون من الرجال الأشداء كعمرو بن العاص

ومخرمة بن نوفل ، الأول كان مشهوراً بالدهاء ، والآخر كان سليط اللسان .

وقرر الرسول عليه السلام أن يعترض طريق القافلة ، إلا القافلة مرت وبلغت الشام ، ولهذا استقر رأى الرسول على :

(ا) أن يعترض أبا سفيان وقافلته عند العودة ، وقد قدر الرسول زمن الذهاب والعودة بثلاثة أشهر

(ب) أن يبعث بالعيون « جماعات الإستطلاح أو الإستكشاف » لمراقبة الطريق وللافادة عن القافلة عند اقترابها أثناء العودة !

وعندما اقترب موعد العودة حسب تقديره عليه السلام — وكان تقديره صادقاً فلم يخالف الواقع حسابه فى شىء — بعث الرسول طلحة ابن عبيد الله وسعيد بن زيد فمضيا حتى نزلا فى الروحاء « على بعد ثلاثين ميلا من المدينة » بخباء رجل من جهينة يسمى كشد « أو كسد كما جاء فى الاصابة » وأقاما عنده حتى لاحت العير فأسرعا إلى الرسول يبلغانه عودة القافلة !

وأرسل الرسول اثنين من الصحابة هما بسبس بن عمرو وعدى ابن الزغباء ليجمعا معلومات عن القافلة ويراقبا عودتها ، فنزلا بدراً حيث سمعا جاريتين من جوارى العرب تتخاصمان وتطلب إحداهما

من الأخرى دينا لديها فقالت : « إنما تأتى العير غداً أو بعد غد فاعمل لها ثم أقضيك الدين » ، وصدق قولها عربى يدعى مجدى بن عمرو وأكد لهما قرب ورود العير ، فلما سمع مبعوثا الرسول ذلك عادا إليه وأخبراه !

٢ — كان الرسول قد قدر أن يذهب أبو سفيان وقافلته إلى الشام ثم يعود مارا ببدر فى خلال ثلاثة أشهر ، وخشى عليه السلام أن ينجح أبو سفيان فى الإفلات بالقافلة مرة أخرى فتضيع على المسلمين فرصة قد لا تعود ثانية ، ولهذا ندب المسلمين إلى الخروج ، فخرج معه من كان بعيره أو فرسه حاضرا ، وطلب إليه قوم ممن كانوا يسكنون عوالى المدينة وأغلبهم من الخزرج أن يذهبوا فيحضروا رواحلهم ليخرجوا معه فلم يرض — حرصاً منه على الوقت والفرصة — أن ينتظر قائلا « لا يتبعنا إلا من كان بعيره حاضرا » فهو عليه السلام لم يكن مهتما بالحشد والجمع والكثرة لأنه لا يريد إلا العير ، وهى لا قوة لها ولا شوكة ، لأن القافلة فى حراسة ضعيفة وهو عليه السلام لا يبغى قتالا ، ولم يبيت النية عليه ، ولذلك كان عدد الخارجين قليلا وأكثرهم من الشباب ، فقد بلغت عدة الناس جميعاً

من المهاجرين والأنصار نيفاً وثلثمائة منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس ، وبقية الناس من الخزرج !

وكان من هؤلاء الذين خرجوا غلمان لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من أعمارهم ، منهم عمير بن أبي وقاص وحارثة بن سراقة وعبد الله ابن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء ابن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وغيرهم ولم يجزهم الرسول !

ولم يكن مع الرسول عند الخروج سوى فرسين للزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وسوى سبعين راحلة ، فكان الخارجون يتعاقبون الركوب ، وكان النبي عليه السلام يتناوب ركوب بعيره مع علي ابن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد !!

٣ — شعر أبو سفيان — وهو في طريق العودة — حين اقترب من الروحاء ، أن عيونا تترصده فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ، وبعث به إلى مكة يبلغ أهلها أن المسلمين قد اعترضوا طريق القافلة ويستصرخهم إلى مناصرة العير !

ووصل ضمضم إلى مكة فقطع إذن بعيره ، وجدع أنفه وحول رحله ، ووقف عليه وشد قميصه من قبل ومن دبر ، ثم نادى أهلها

واستنفرهم « يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة . . أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ولا أرى أن تدركوها . . فالغوث الغوث » .

وسمع أبو جهل ما يقوله ضمضم فتملكه الغيظ واشفق على ماله ومال قومه ، فأسرع إلى الكعبة ووقف يصيح في قريش أن تخرج كلها لإنقاذ الأموال « أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك » .

وكانت بين قريش وكنانة عداوات وثارات ، وخشيت قريش الخروج فيقع بينها وبين كنانة صدام يؤخر اللحاق بأبي سفيان ، ولكن ابن مالك بن جعشم أحد أشراف كنانة قطع على نفسه عهدا بألا يتعرض قومه لقريش أثناء تحركها « أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه » .

وخرجت جموع قريش في ألف رجل يحمل كل منهم سلاحه ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير وقد تجهزوا للحرب واستعدوا لها .

٤ — في هذه الاثناء كان أبو سفيان على رأس القافلة يغذ السير في طريقه إلى مكة وكان كما أشرنا رجلا حذرا فسبق العير يتنطس الأخبار ، فقابله مجدي بن عمرو الذي أبلغه أنه شاهد راكبين

أناخا عند تل قريب ، فلما توجه أبو سفيان إلى التل وجد فى روث البعيرين نوى من علائف يثرب ، فأدرك أن الراكبين من أصحاب محمد ، وتأكد أن محمدا ورجاله سيعترضون طريقه ويضعون أيديهم على الأموال ، مضاه إلى عيره وغير طريقه واتجه إلى ساحل البحر ، وأسرع فى مسيره حتى بعد ما بينه وبين محمد .

وبذلك يكون أبو سفيان قد نجح فى أن ينجو بالقافلة فلما اطمأن إلى سلامته وسلامة من معه ، بعث إلى قريش : « إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم . . فقد نجاها الله فارجعوا .

ورأى رأيه عدد غير قليل إلا أن أبا جهل غضب لهذه الدعوة وصاح فى قومه : « والله لانرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثا ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا .

واتبعت قريش رأى أبى جهل إلا بنى زهرة ، فقد نصحهم الأخنس بن شريق بالعودة فسمعوا له .

وهكذا يكون خروج قريش وظهورها فى الميدان قد قلب ميزان القوى ، لأن الرسول خرج قاصدا القافلة ولم يكن هدفه القتال ، بينما خرجت قريش كلها تهدف إلى لقائه والقضاء عليه .

تقـــدير الموقف(1)

الغرض من الخروج :

الاستيلاء على قافلة أبي سفيان

العوامل التى تؤثر على الغرض :

١ — القوى المتضادة :

— قدرت قوة المسلمين بـ ٣٠٠ مقاتل تقريبا فيهم كثير ممن بلغوا الحلم منذ شهور ، وفيهم عدد من المهاجرين الذين كانوا مستضعفين فى مكة وفى قلوبهم بقية من الرعب ممن كانوا يعذبونهم ، كما أن فيهم عدد قليل التجربة والمهارة والدربة .

— قدرت قوة قريش بـ ١٠٠٠ مقاتل تقريبا فيهم رجال مكة وأشرافها ورؤساؤها وهم رجال حرب مدربون على القتال .

٢ — السلاح :

— كان مع المسلمين فرسان اثنان فى مواجهة مائة فرس مع

(1) نرجو أن نشير الى اننا نستخدم المصطلحات العسكرية المستخدمة فى حروب اليوم ونقدم هذا التقدير للموقف فى ضوء نظريات الحرب الحديثة وطبقا لمفاهيم الفن العسكرى المعاصر .

قريش وكان لدى المسلمين سبعون بعيرا يقابلها لدى قريش سبعمائة بعير .

— لم يكن لدى المسلمين من السلاح سوى ثمانية من السيوف وست من الدروع وعدد قليل من النبال .

— كان جيش قريش مسلحا بالدروع والسيوف والنبال وكل أدوات القتال ولم يكن بين الجيش فرد واحد غير مسلح .

٣ — التحرك :

— كان ماء بدر هو مكان اللقاء المنتظر .

— والمسافة بين مكة وبدر تقدر بأربعة أمثال المسافة بين المدينة وبدر ، ومعنى هذا أنه كان أمام جيش المشركين خمسة عشر يوما بالسير العنيف ، وأمام جيش المسلمين أسبوع كامل للوصول إلى بدر ، ومعنى هذا أيضا أن قوة جيش مكة فى التحرك هى أربعة أميال بينما تكون قوة المسلمين فى التحرك ميلا واحدا ، لأن جيش المسلمين كان من المشاة بينما كان جيش قريش من الركبان .

٤ — القوى المعنوية :

— خرج المسلمون للجهاد فى سبيل الله دفاعا عن الدين ووقوفا فى وجه المعتدين وهم يحاربون بإيمان فى سبيل أحد هدفين ، انتصار

عظيم أو استشهاد كريم ، فإذا انتصروا فقد فازوا بالأموال وهى حق لهم ، إذ تركوا فى مكة أموالهم وديارهم وممتلكاتهم ، وإذا ماتوا فقد فازوا بالنصيب الأوفى . . بخير الدنيا والآخرة . .

— قال المقداد بن عمرو للرسول نيابة عن المهاجرين :

« يارسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله لانقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لوسرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

— وقال سعد بن معاذ باسم الأنصار « امض لما أردت فنحن معك فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء » .

— أما المشركون فهم قوم يحاربون من أجل دنياهم بنفوس تمتلىء حقدا وفجورا ، يسعون إلى السيطرة والبغى والسلطان ، ويحرصون على حياتهم ليعودوا إلى ما كانوا يتمتعون به من لذات دنيوية ، هذا فوق أنهم يأملون فى إنهاء المعركة ليعودوا إلى سلطانهم

وجاههم وحياتهم الماجنة الخليعة . . هم يحاربون من أجل أن تسمع العرب بهم وبسيرتهم ويجمعهم فلا يزالون يهابونهم .

طرق الحل المفتوحة :

كان أمام المسلمين حلان لا ثالث لهما وأحلاهما مر :

١ — الإنسحاب والعودة إلى المدينة

— وإذا استقر الرأى على الأخذ بهذا الحل فيجب أن يتم الانسحاب بسرعة قبل أن تقطع قريش خط الرجعة على الجيش الإسلامى ، فلا يستطيع العودة ، هذا فوق أن الأخذ به قد يشجع قريشا على الزحف على المدينة للقضاء على المسلمين والتخلص منهم نهائيا .

— وقد يشجع هذا الحل أيضا اليهود داخل المدينة على الانقضاض على المسلمين أملا فى استعادة مركزهم ومكانتهم، ولو أدى الأمر إلى الاستعانة بقريش .

— هذا فوق أن الانسحاب قد يؤدى إلى تدهور الروح المعنوية عند المسلمين ، لظهورهم بمظهر الضعف والخوف والجبن ، وخاصة أن الغرض الأساسى من الخروج ضاع وفات .

٢ — مواجهة جيش قريش :

— وفى هذا الحل خطورة لجيش المسلمين قليل العدد قليل العدة بينما أعداؤهم يتميزون بالكثرة فى العدد والسلاح .

— ولكن الأمل كبيرا فى عون الله ونصرته ومؤازرته ، فقد قدر الله تبارك وتعالى هذا اللقاء على غير ميعاد ، كما يقول سبحانه : « ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا » فما كان المسلمون ليحرصوا على هذا اللقاء لو أنهم علموا حالهم وحال أعدائهم ولمسوا البون الشاسع بينهم وبين أولئك الأعداء فى العدد والقوة . . وأراد الله أن يتم هذا اللقاء ليقضى أمرا سبق فى علمه وقوعه وهو نصر المؤمنين ، فبهذا النصر يبدأ الإسلام عهدا جديدا .

— ولقد اتجه الرسول بكل نفسه إلى ربه ، وجعل ينشده ما وعده به ، وبالغ فى الدعاء والابتهال . . « اللهم هذه قريش قد اتت بخيلها ورجالها تحاول أن تكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الأرض وخفق الرسول خفقة من نعاس رأى خلالها نصر الله فقال لأبى بكر : « أبشر أبا بكر أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده

على ثنايا النقع » ، وقال للمسلمين : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ونزلت آيات الله الكريمة : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين »[1] « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان[2] ، « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى[3] » :

— ولاحظ المسلمون أن الأمطار سقطت بشدة فوق أرض للمعركة ، فتحولت الأرض التى يسير عليها المشركون إلى أوحال ، وأصبح من العسير عليهم أن يتقدموا عليها بينما أصابت أرض المسلمين أطراف السحب بمطر خفيف ، فتلبدت الأرض تحتهم وسهلت لهم السير والحركة ، وكان سقوط الأمطار مشجعا للمسلمين على مواجهة أعداء يصعب تحركهم .

---

(١) سورة الأنفال ٦٦ .

(٢) سورة الأنفال ١٢ .

(٣) سورة الأنفال ١٧ .

الخطـة :

مواجهة قريش ودخول المعركة :

(ا) انتخب المسلمون مكانا يشرف على منطقة القتال بنى فيه عريش[1] للرسول وأمن الحراس هذا المقر .

(ب) جرى ترتيب المقاتلين فى صفوف ، وأمر الرسول أصحابه أن يصدوا هجمات المشركين وهم مرابطون فى مواقعهم ، وقال لهم : « إذا اكتنفكم القوم فأنضحوهم بالنبل ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا » .

(جـ) كانت كلمة التعارف بين المسلمين وشعارهم فى القتال « أحد . . . أحد . . . » .

(د) يتولى الرسول تحريض المسلمين على القتال أثناءه ، ويدفعهم لمقاتلة العدو ويبلغهم أن الجنة لمن أحسن البلاء ولمن غمس

(١) كان سعد بن معاذ قد أشار على رسول الله : يانبى الله نبنى لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان اعزنا الله واظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك اقدام يانبى الله مانحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا انك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك» .

يمه فى العدو حاسرا تنفيذا للأمر الإلهى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » .

(هـ) كان الإذن بالقتال هو كلمة « شدوا » تصدر عن رسول الله .

(و) توجيه الجهد إلى سادات قريش وزعمائها بقصد استئصالهم جزاء وفاقا لما عذبوهم بمكة ولما صدوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله .

(ز) عدم التعرض لبنى هاشم وبعض رجال من سادات قريش رغم اشتراكهم فى المعركة ضد المسلمين تقديرا لموقفهم منهم ومعاونتهم لهم منذ البعث إلى الهجرة وخلال فترة المقاطعة .

الباب الثالث

الخطـــة

الخطة هى الأساس أو المنهاج الذى يخوض الجيش عليه المعركة ، وعليها تتوقف الى حد كبير نتيجتها ٠٠٠٠ والخطة التى تضمن النصر هى التى توضع نتيجة دراســـات صـحيحة سليمة واعية والتى تتوافر فيها كل مقومات النجاح فى المعركة ٠



ينتهى تقدير الموقف العسكرى بوضع خطة اللقاء مع العدو فوق أرض المعركة .

والخطة هى الأساس أو المنهاج الذى يخوض الجيش — أى جيش — عليه المعركة . . وعلى الخطة تتوقف إلى حد كبير نتيجة المعركة .

والخطة التى تحقق النصر هى تلك التى تتقرر نتيجة دراسات صحيحة سليمة واعية — كما سبق القول — لقوات الطرفين عدداً وعدة وتدريبا وخبرة ، ولطبيعة أرض المعركة ، والظروف الجوية التى تسودها ، ولنوعية السلاح وصلاحيته وقدراته وطرق استخدامه ، ولمعنويات المقاتلين ، ومدى اقتناعهم بالهدف الذى يسعون إليه والغرض الذى يقاتلون من أجله ، والآمال الكبرى التى ينشدونها من وراء لقاء العدو .

ولم يحدث أبداً أن خاض جيش — أى جيش — غمار معركة — أية معركة — دون وضع خطة للمعركة . . والتاريخ الحربى حافل بالخطط الحربية التى وضعت منذ قامت الحرب حتى يومنا هذا . .

بعضها حقق النصر ، وبعضها الآخر لم ينله ، والفرق بينهما هو سلامة الأساس الذى قامت عليه الخطة .

والإسلام شأنه شأن أية قيادة عسكرية اهتم اهتماما بالغاً بالخطة ، وتاريخه الحربى يؤكد هذه الحقيقة بل ويبرزها . . والانتصارات الحاسمة التى حفل بها تاريخ الإسلام كانت نتيجة مباشرة للبراعة العربية فى وضع خطط القتال ، ولا عجب فى ذلك فقد كان للقادة المسلمين قصب السبق فى هذا الاتجاه ، فما من خطة وضعت إلا وقد روعى فيها كل اعتبار ، وقدر لكل ظرف فيها قدره .

ولا شك فى أن وضع الخطة بعد دراسة وعمق يكون هو الخطوة الأولى نحو النصر ، تستتبعها خطوات أخرى هامة وضرورية ، فلا تكفى الخطة لاحراز نصر ما ما لم تتوافر مقومات تحقيق هذه الخطة وتنفيذها بالصورة التى هى عليها .

ولقد تنبه الإسلام إلى هذه الحقيقة الجوهرية العامة ، ولهذا حرصت القيادة العسكرية الإسلامية على توافر جميع المقومات التى تحقق النصر وتؤكده .

فالخطة الجيدة لا يضعها القائد وحده ، فرأى واحد قد يخيب

أو يخطئ ، ولكن رأى الجماعة يصيب دائماً ، ولهذا كان الإسلام حريصا على أن توضع الخطة على أساس من الشورى .

والخطة الجيدة ينفذها الجيش . . والجيش قادة وجند ولهذا يجب أن تقوم علاقات طيبة بين القادة والجند وأن يتبادل الطرفان الاحترام والثقة والتقدير . . ولقد اهتم الإسلام اهتماما بالغاً بالصلة الوثيقة التى ربطت قلوب القادة وعواطفهم ومشاعرهم بقلوب الجند وعواطفهم ومشاعرهم .

والخطة الجيدة تعتمد أساساً على روح القتال ، فرجل مؤمن قوى شديد الإيمان يستطيع أن يواجه عدداً من الرجال ضعاف الإيمان ويستطيع أن ينتصر عليهم ، ولقد أولى الإسلام هذا الجانب الحيوى الهام عنايته فعمل على رفع معنويات جنده إلى المستوى الذى يناسب المعركة ويتمتع والقتال .

هذه هى المقومات التى يجب أن يكون لها المقام الأول عند وضع الخطة وعند تنفيذها ، ولقد توخاها الرسول عليه السلام فى كل مواقعه ، وعنه صلى الله عليه وسلم أخذها القادة المسلمون فأصبحت منهاجا ووسيلة إلى تحقيق النصر .

(١) جماعة القيادة :

قام الإسلام على الشورى سبيلا إلى نشر الدعوة الجديدة وتدبيتها والتمكين لها والتغلب على محاولات أعدائها ، ووقايتها من عوامل التعويق والتشكك والانحراف وذلك لتسير فى وجهتها التى رسمتها لها عناية الله .

والشورى تعنى الاهتمام برأى أصحاب الرأى . . وهذا يعنى أن الإسلام حرص على روح الجماعة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » و « عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة » و « يد الله مع الجماعة » .

وحرص الإسلام على ذلك راجع إلى الرغبة فى تقويم النزعة الفردية فى الأمة ، وإلى إشاعة عادة تبادل الرأى والتشاور فى الأمر والتناصح فى كل موطن يقبل التناصح . . أى أن حرص الإسلام يهدف إلى استعراض شتى وجهات النظر ، وتمحيص الآراء والأفكار فإن ذلك من شأنه أن يحقق للأمة عوامل الفوز والنجاح ويبعد عنها عوامل الانحراف والخسران . يقول رسول الله « الدين النصيحة » .

وإذا كانت النصيحة والشورى وتبادل الرأى ضرورية بالنسبة

لأوجه الحياة كلها ، فهى من أول الضروريات فى شئون الحرب ومن ألزمها ، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى رسوله وهو المعصوم المؤيد بالوحى ، أن يشاور ويأخذ رأى غيره ويستمع للنصح ، ويستعين بأهل الخبرة والتجربة فقال : « وشاورهم فى الأمر » .

إذن كان الرسول يشاور أصحابه ويستعين بخبراتهم وآرائهم .

ونهج الخلفاء من بعده ذات المنهج حتى ظهرت فى الأمة فئة سميت « أهل الحل والعقد » ، وأصحابها هم الذين أصبحوا موضع الثقة ومبعث الخبرة بما استبان من اخلاصهم وظهر من ذكائهم .

وهكذا أصبح مبدأ الشورى « وأمرهم شورى بينهم » ركيزة قوية من ركائز الدولة الإسلامية ، ومظهراً من مظاهر ديمقراطيتها ، إذ كان للرأى الأصلح دائماً القدح المعلى والكلمة النافذة .

فى بدر نزل الرسول وأصحابه أدنى ماء من بدر ، وكان من بين رجاله رجل عليم بالمكان هو الحباب بن المنذر ، فسأل الرسول : « يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » ، فأجابه : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال : « يا رسول الله فإن هذا

ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى الماء من القوم ، فنشرب ولا يشربوا » ، ورأى الرسول صواب رأى الحباب فاتبعه وبذلك أعطى للقوم درساً فى أن الرأى شورى بينهم ، وأنه لا يقطع رأياً دونهم وأنه فى حاجة إلى حسن المشورة .

ولم يقرر الرسول القتال فى بدر وحده ، وإنما استشار الناس . . استشار المهاجرين ، واستشار الأنصار . . وبذلك وسعت دائرة المشورة حتى شملت السواد الأعظم . . وعندما دخل المسلمون المعركة ، كان دخولهم نتيجة لآرائهم كلهم واقتناعهم بضرورتها .

وعندما سمع الرسول بتحرك قريش إلى المدينة أملا فى نصر يعوضهم هزيمتهم فى بدر ، جمع أصحابه وجعلوا يتشاورون كيف يلقون عدوهم ؟ . عرض النبى أن يتخذ المسلمون خطة دفاعية فيتحصنوا بالمدينة ، ويتركوا قريشاً خارجها ، فإن حاولت الاقتحام كان المسلمون أقدر على صدهم ودفعهم والتغلب عليهم ، وأيد عبد الله بن أبى بن سلول الرسول إذ قال : « لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصى ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان ، فتكون كالحصن من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة ، وقاتلناه بأسيافنا فى السكك ، إن

مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فضت علينا قط ، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا » .

ورأى بعض من المسلمين أن يخرجوا للقاء العدو وحجتهم فى ذلك ما جاء على لسان أحدهم : « أنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولوا حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها فتكون هذه مجرئة لقريش ، وها هم هؤلاء قد وطئوا سعفنا فإذا لم نذب عن عرضنا لم يزرع ، وأن قريشاً قد مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا ؟ لئن فعلنا لازدادوا جرأة ولشنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ، ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ، ثم لقطعوا الطريق علينا » .

واستقر الرأى على الخروج ، ولكن الداعين إليه خشوا أن يكونوا قد أكرهوا الرسول على أمر لا يريده فذهبوا إليه يريدون الأمر إليه ، « ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدالك ، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك » ، واجابهم الرسول إجابة

مستمدة من مبدأ الشورى « ما ينبغى لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » .

وفى الخندق فزع المسلمون إذ بلغهم اجتماع الأحزاب ضدهم وتحركهم إلى المدينة فاجتمعوا يتشاورون فى الخطة التى يتطلبها الموقف وأشار عليهم سلمان الفارسى بحفر الخندق ، فسارعوا إلى تنفيذ ما أشار به ، وحفر الخندق ، واشترك فى حفره كل المسلمين وفى مقدمتهم الرسول عليه السلام وعندما أقبلت قريش فاجأها الخندق ، وكان أسلوبا جديدا من أساليب الدفاع .

هذه أمثلة من جماعية القادة فى عهد الرسول :

ومع بداية عهد أبى بكر الصديق ظهرت مشكلة منع الزكاة فجمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم فى قتال الذين منعوها ، وأبديت آراء متعددة بعضها يعارض قتالهم ، والبعض يؤيده ، وانتهى الرأى إلى الأخذ بمبدأ : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » .

ثم ظهرت فتنة الردة ، ولم ينفرد أبو بكر بالرأى فى معالجة هذه الفتنة بل جمع الصحابة وأولى الرأى وعرض عليهم الأمر ، وتقرر قتال

المرتدين واستشارهم أبو بكر فى القيادات التى تتولى الألوية الأحد عشر التى أعدت للقتال ، واجتمع رأيهم على القادة ، ولم يختلف فى واحد منهم .

وجاء المثنى بن حارثة يعرض على أبى بكر أمداده بجيش يتمم به ما بدأه فى أرض العراق ، فاستشار أصحابه وتداول القوم المشورة بينهم ورأوا أن يستشيروا خالد ابن الوليد ، وكان مقيما فى اليمامة ، فبعث إليه أبو بكر واستدعاه وعرض عليه الأمر وأتم الناس المداولة فيما بينهم وانتهوا إلى تأمير المثنى .

وجمع أبو بكر من الصحابة وأولى الرأى عمر وعثمان وعليا وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة ومعاذ ابن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وعدد من المهاجرين والانصار ، وعرض عليهم أنه يرى أن يستنفر المسلمين إلى الروم بالشام وطلب إليهم الرأى . . . ودارت المناقشة فقال عمر « والله ما استبقنا إلى شىء من الخير قط الا سبقتنا إليه . . قد والله أردت لقاءك بهذا الرأى الذى ذكرت فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن . فقد أصاب الله بك سبل الرشاد ، سرب إليهم الخيل فى أثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال، والجنود تتبعها الجنود، فإن الله عزوجل

ناصر دينه ومعز الإسلام وأهله ومنجز ماأوعد رسوله » ، وقال عبد الرحمن بن عوف « ياخليفة رسول الله إنها الروم وبنو الأصفر حد حديد وركن شديد ، والله ما أرى أن نقحم الخيل عليهم اقحاما ، ولكن تبعث الخيل فتغير من أدانى أرضهم ، ثم تبعثها فتغير فترجع إليك ثم تبعثها ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مرارا أضر بعدوهم ، وغنموا من أدانى أرضهم ، فقووا بذلك على قتالهم ، ثم تبعث إلى أقاصى ربيعه ومضر فتجمعهم إليك جميعا ، فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك وقال عثمان : « أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين ، شفيق عليهم فان رأيت رأيا فيه لهم رشد وصلاح وخير فأعزم على امضائه فإنك غير ضنين ولا متهم عليهم » ، وانتهى الرأى إلى « ما رأيت من رأى فأقضه فإنا سامعون لك مطيعون لا نخالف أمرك ، ولا نتهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعواتك وإجابتك » .

وعندما بلغ الموقف فى الشام حد الحرج وعدم الاطمئنان ، أخذ أبو بكر يشاور عمر وعليا وسائر أولى الرأى المقيمين ، وعرض عليهم الخليفة أن يسير خالد من العراق إلى الشام ليتولى أمر المسلمين هناك ،

فلم يعترض أحد بل اتفقوا معه على رأيه « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد .

وهكذا كانت حكومة أبو بكر حكومة شورى فى منشئها فى نزعتها .

أما فى عهد عمر فقد اتخذت الشورى صورة من القيادة الجماعية الواسعة ، تتلاءم مع الفتوحات الإسلامية ، فقد كان عمر يشاور المسلمين فى كل ماجل ودق من أمور المسلمين .

أراد عمر أن يبعث بجيش إلى العراق فكتب إلى عماله والقبائل يقول « لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه الى ، والعجل . . العجل » ، واجتمع له بضعة آلاف نزل بهم على ماء يدعى صراراً فعسكر به ، ثم استشار الناس فى المسير إلى العراق ، فقال له العامة « سر وسر بنا معك » ، فقال لهم : « أعدوا واستعدوا فأنى سائرا إلا أن يجىء رأى هو أمثل من هذا » ، ثم دعا أصحاب المشورة وأعلام العرب فاجتمعوا إليه فسألهم « أحضرونى الرأى فأنى حائر فاجتمعوا على أن يبعث أمير المؤمنين رجلا من أصحاب رسول الله على رأس الجيش ويبقى هو بالمدينة يمد هذا الرجل بالجند ، فإن كان الذى يشتهى من الفتح فذلك ما يريد ويريدون ، وإلا ندب جنداً آخر يغيظ به العدو حتى

يجيء نصر الله ، وقال عبد الرحمن بن عوف مؤيداً هذا الرأى « أقم وأبعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك ، وأنك أن تقتل أو تهزم فى أنف الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون ، وإلا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً »
ووقف عمر فى الناس فخطبهم فقال « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وأنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذووا الرأى منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلا :

ولم ينته أمر الشورى باقرار خروج عمر وأبقائه ، وإنما استمر حتى اختير سعد بن أبى وقاص قائداً للجيش ، فإن عمر سأل خاصته عمن يتخيره لإمارة هذا الجيش وأخذ كل منهم يعرض الإسم الذى يراه حتى وصل خطاب إلى عمر من سعد فقالوا له : « قد وجدت الرجل» سأل « فمن ؟ أجابوه « الأسد فى براثنه . . سعد بن مالك » .

وقدمت على عمر وفود الجند من جل ولاء وحلواته وتكريت والموصل فقال لهم : « والله ما هيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ، ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وأنهم لكما أبدءوا فما غيركم ؟ » قالوا « وخدمة البلاد » وكان حذيفة بن اليمان قد كتب إليه قبل مجيء الوفود » أن العرب قد رقت بطونها وجفت أعضاؤها وتغيرت

ألوانها ، وسأل عمر من حوله من المدينة ممن لهم علم بمواقع العراق أيعرفون مكاناً بريا بحرياً « ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر » واتفق رأى الجميع على أن موضع الكوفة هو خير موقع فأمر سعداً بأن يسير بالقوم على هذا الموضع ، وكتب إليه سعد بعد أن استقر الناس « أنى قد نزلت الكوفة منزلا فيما بين الحيرة والفرات ، بريا وبحريا ينبت الحلفاء والنصى ، وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن فمن أعجبه المقام بالمدائن تركته فيها كالمسلحة » .

وهكذا سارت حكومة عمر على مبدأ الشورى شأنها فى ذلك شأن ما رسمه الرسول عليه السلام وما تمسكت به حكومة أبى بكر .

وكما كان الحكام يستشيرون أصحابهم كذلك كان القادة ، فلم يستقل أحدهم برأى ، وإنما كان رأى الجماعة هو النافذ . وتقدم المثل التالى كدليل قاطع لما نذهب إليه والأمثلة فى الحروب الإسلامية كثيرة متعددة فقد كانت الشورى هى السياسة الغالبة عند جميع القادة المسلمين .

ففى اليرموك كان جيش المسلمين فى أربعة وعشرين ألفاً ، كل جماعة يقودها أمير ، وجاء خالد فوجدهم على حالهم يقاتلون الروم

متفرقين متساندين ، ووجد جموع الروم تزحف من صفوف متلاحقة كالموج الغاضب ، فجمع الأمراء وتحدث إليهم وعرض عليهم رأيه فى شأن التجمع تحت قيادة واحدة : « أن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى فأخلصوا جهادكم وتوجهوا لله تعالى بعملكم فهذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وأن وراءكم لو يعمل عملكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به ، فالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته » فقالوا له : « فما الرأى ؟ » قال : « إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم .. هلموا فلنتعاور الأمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعونى إليكم اليوم ، وتشاور الأمراء ونظروا فى هذا الأمر فوافقوه على رأيه وأمروه ، وكان يوم اليرموك يوما من أيام الله الخالدة خنس فيه الباطل وذل فيه المتان .

الذى نريد أن ننتهى إليه هو أن الإسلام قد أقر نظرية جماعة القيادة ، وأن القيادة العسكرية الإسلامية قد جعلت جماعية القيادة مبدأ ومنهاجاً للقادة العسكريين جميعاً ، وكان هذا المنهاج من عوامل

التلاحم والترابط بين المسلمين فى المعركة الواحدة ، فتحقق به النصر وتم به الظفرة .

وجماعية القيادة كانت من أهم إتجاهات القيادات العسكرية التى جاءت بعد الإسلام ، فإن القيادات المختلفة اتفقت على تواجد هيئة خاصة بجانب القائد تقدم إليه المشورة والرأى ويطلق عليها إسم هيئة الأركان حرب ، وهذه الهيئة تعد مسئولة مع القائد مسئولية مباشرة فى ضوء أرائها يضع القائد خطته . . وهذه الهيئة تشبه تماما أهل الحل والعقد وأصحاب الرأى فى الإسلام ، المهمة واحدة والهدف واحد والمسئولية واحدة .

٢ — علاقة القائد والجند :

العلاقة التى تنشأ بين القائد وجنده عامل هام من عوامل المعركة ولقد حرص الإسلام على أن تكون هذه العلاقة على مستوى المسئولية التى يتحمل عبأها المسلمون جميعاً قادة كانوا أو جنداً ، ولهذا كان لا بد من أن يرتبط القادة والجند برباط قوى ، وأن تجمع بينهم ثقة مطلقة ، وأن تتحد مشاربهم وتتقارب قلوبهم .

ومن أجل إيجاد هذه العلاقة اتخذ الرسول خطوة جادة حين

استقر بالمدينة ، فدعا إلى التآخي بين المسلمين . . وكانت هذه الدعوة إبقاء على الصلات ودعما للأخوة الإنسانية ومحافظة على بناء الدولة على وحدة الدين والغاية .

واهتمت القيادة العسكرية الإسلامية بالغ الإهتمام بإيجاد علاقة قوية راسخة بين القادة والجند ، في ضوء هذه العلاقة أصبح القادة والجند ملزمين بأمور جوهرية .

فالقائد عليه أن يحافظ على جنده ، وألا يحملهم من الأمر ما هو فوق طاقتهم ، وأن يحرص على سلامتهم ، وألا يفرق بينهم في المعاملة ، وأن يكون لهم في كل تصرفاته مثلا وقدوة ، وألا يجعل بينه وبين جنده حاجزاً بل يتصل بهم ويتقرب إليهم ويستشيرهم ، وأن يتصرف بحكمة في كل الأمور التي تتصل بالجند . . وفي مقدمة هذا كله يجب أن يكون موضع الثقة فيؤمن به جنده ويلتزمون بقراراته ويندفعون وراءه ، وهم مطمئنون إلى حكمته وقدرته .

والجند ملزمون بالولاء لقائدهم فيسمعون له ويطيعون ، ويعملون وفق رأيه ، وينفذون أوامره ، لايخالفونه ولاينشقون عنه ، ويسعون إلى أن يكونوا موضع ثقته .

والرسول الكريم هوأول من تولى قيادة المسلمين . . وقد حرص

على أن تكون علاقته — كقائد بجنده — علاقة تتسم بالود والحب والاحترام والتقدير ، وأن تقوم على أساس الثقة الكاملة . . هم يثقون به وبرسالته وبمبادئه وبخططه ، وهو عليه السلام يثق بهم ويطمئن إليهم .

كان الرسول شجاعا فتمثل به جنده وملأوا الميدان بضروب الشجاعة .

وكان الرسول قوى الإرادة راسخ العقيدة وكذلك كان جنده يأخذون عنه ويتعلمون منه .

وكان الرسول يعيش بين جنده كفرد منهم يشاركهم فى السراء والضراء فاستمال قلوبهم ونال محبتهم .

وكانت ثقة الرسول بجنده ثقة عظيمة فبادلوه الثقة .

وكان الرسول محاربا ممتازاً يخوض المعركة فى قوة وعزم وإيمان فسار جنده على دربه ونسجوا على منواله وخاضوا المعارك وبطولاته فى عقولهم وقلوبهم وأفكارهم .

بعث الرسول عبد الله بن جحش ومعه ثمانية رجال من المهاجرين وهم أبو حذيفة ابن ربية وعكاشة بن محصن وعتبة بن غزوان وسعد

ابن أبي وقاص وعامر بن ربيعة وواقد ابن عبدالله وآخران ، إلى مكان يسمى نخلة بين مكة والطائف ليترصد بها عيراً لقريش فالتقوا بعير عليها عمرو بن الحضرمي ، وبدأ قتال بين الطرفين قتل فيه عمرو بسهم رمى به واقد بن عبد الله ، وأسر المسلمون عثمان بن عبد الله ابن المغيرة والحكم بن كيسان وهو مولى لبني مخزوم ، وقبضوا على العير .

أثار قتال سرية عبد الله أمران كان لهما شأن كبير بالنسبة لعلاقة القائد بجنده ..

أولهما أن اللقاء تم في آخر يوم من جمادى الثانية وأول ليلة من رجب ، وشنت قريش نقداً عنيفاً على المسلمين لأنهم استحلوا حرمة الشهر ، وانتهكوا الحرمات وسفكوا الدماء وانتهبوا الأموال ، وأشعل اليهود نار الفتنة وقد واتتهم الفرصة للدس والوقيعة ، وقلق العرب من دعاية قريش واليهود .. وعاش الرسول والمسلمون في محنة ، إذ كان الرسول يضيق لموقف هذه الفئة من رجاله ، ولكن الله تبارك وتعالى أنزل في ذلك الرد القاطع فهدأت نفس الرسول وسرى عن المسلمين . « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر

عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم أن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وثانيهما أن اثنين من المسلمين هما سعد بن أبى وقاص وعتبة ابن غزوان ذهبا بعيداً عن السرية يطلبون بعيرا لهما ضل ، فأسرتهما قريش ، وأرسلت تطلب إلى الرسول فك أسيريها عثمان والحكم ، على أن تدفع له عليه السلام ما شاء من الفداء ، ولكن الرسول القائد رأى أن لا يقبل الفدية حتى يقدم صاحباه من أسر قريش ، واشترط أن يصل الاثنان إلى المدينة قبل اطلاق أسرى مكة ، وهدد بقتل أسيريه إذا أصاب رجليه أى سوء .. وخضعت قريش وأطلقت سعدا وعتبه ففاداهما رسول الله . .

هذا التصرف من جانب الرسول يؤكد حرصه — عليه السلام — على رجاله ومحافظته عليهم وعدم تفريطه فى أحدهم . .

وهذا الاحساس الذى وضح من تصرف الرسول يظهر مدى العلاقة التى أوجدتها القيادة العسكرية الإسلامية لدى المسلمين ، ولقد أرادت هذه القيادة أن تجعل الرسول مثلا وقدوة فكان تمسكه عليه السلام

بعودة الأسيرين وحرصه على وصولهما سالمين معافين لم يصبهما ضرر أو أذى .

وفى بدر أشار سعد بن معاذ على الرسول أن يقيم له عريشا يبقى به خلال القتال ووافق الرسول ، ولكنه عليه السلام أبى أن يبقى بعيدا عن المعركة ، وأصر على أن يشارك رجاله لقاء العدو ، وأن يكون معهم وبينهم ، فهذا هو شأن القائد ، ولهذا ترك الرسول العريش ونزل إلى ساحة اللقاء ، وظل مع رجاله وفى مقدمتهم ، وأخذ حفنة من الحصباء واستقبل بها قريشا وقال « شاهت الوجوه » ثم أصدر أوامره إلى رجاله « شدوا » فى ذلك قال على بن أبى طالب « كنا إذا اشتد البأس التقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ان الرسول كان يعلم مدى الانطباع الذى يتركه وجوده بالمعركة فى نفوس رجاله المقاتلين وكان يرى أن علاقة القائد بجنده تقوى وتبرز خلال القتال ، فإذا رأى الجنود قائدهم ينازل العدو ، ويشتد فى نزالة توليتهم الرغبة الجارفة فى التشبه به .

ولعل ثقة الرسول بجنده هى التى جعلته يرشح حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث لمنازلة رجال قريش حين نادى مناديهم « يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا » وأحس

الرجال الثلاثة بثقه الرسول فأرادوا أن يكونوا عند حسن رأيه فيهم ، فقتل حمزة شيبة بن ربيعة ، وقتل على الوليد بن عتبة ثم قتل عتبة ابن ربيعة .

وشارك النبي جنده القتال المر فى أحد ، حتى أشيع أنه قد مات ، وهنا فقد المسلمون روح القتال لأنهم أصبحوا دون قيادة تحميهم وتحرص عليهم وتوجههم ، ولأنه لم تعد هناك رابطة تجمعهم وقائدهم الذى يحنو عليهم ويبادلهم مشاعرهم وإحساساتهم قدمات ، وانتحى هؤلاء جانبا فرآهم أنس بن النضر فسألهم « ما يجلسكم ؟ » قالوا « قتل رسول الله » فقال لهم الرجل « ما تصنعون بالحياة من بعده ، قوموا فموتوا على مامات عليه » .

هكذا حدد أنس لهم طريق العمل فما الذى يبقيهم بعد قائدهم، ولماذا يتمسكون بالحياة وعلاقتهم بقائدهم تمتد إلى ما بعد الحياة .

وأدرك المسلمون هذه الحقيقة ، وكان بينهم أبو بكر وعمر ، فقاموا واستقبلوا العدو وأبلوا فى القتال بلاء منقطع النظير . . فى خلال القتال رأى كعب بن مالك رسول الله ، وحوله عدد من المسلمين كانوا قد التفوا حوله حين أصيبت رباعيته وشج فى وجهه ، وكلمت شفته ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنته

وسقط فى حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، وكان من هؤلاء الذين إلتفوا حول الرسول على بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله وأبو دجانة وأم عمارة الأنصارية . . عندما رأى كعب الرسول صاح مبشرا إخوانه المسلمين « يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله » .

وفى الخندق عندما أشار سلمان على الرسول بحفر الخندق لم يبتعد الرسول بنفسه عن هذه المهمة بدعوى أنه القائد، وأن الحفر مهمة الجند ، وإنما أراد أن يقدم لجنده المثل وأن يشعرهم بالرباط القوى الذى يجمعه وإياهم ، وأن يؤكد لهم أن القائد قدوة يشارك العمل والجهد والبذل ، ويتحمل معهم نصيبا من المعركة لا يقل عن نصيب الواحد منهم ، وأدرك المسلمون هذه المعانى فازداد تعلقهم بالرسول وحبهم له وصبرهم معه ، وجلدهم على القتال ، وكانوا يستجيبون لما يأمر استجابة تحمل أجمل وأروع صور الولاء . .

بدأ الحفر وشارك فيه رسول الله وأخذ يشجع المسلمين عليه ويدعوهم إلى مضاعفة الجهد ولاحظ النبى ما بالرجال من تعب وجوع لأن الزمن كان زمن عسرة والعام عام مجاعة ، فقال متمثلا بقول ابن رواحة على مسمع منهم :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة

فارحم الأنصار والمهاجرة

فأجاب الرجال قائلين :

نحن الذين بايعنا محمدا

على الجهاد ما بقينا أبدا

وفى حديث للبراء بن عازب قال : « لما كان يوم الأحزاب وخندق صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل التراب حتى وأرى الغبار جلده » .

وسار جندى من المسلمين هو عبد الله بن أبى إلى رسول الله وقال : « يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما يبلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار » .

هذا جندى من المسلمين وهب نفسه للاسلام ولله ، تضطرب نفسه لأنه سمع أن أباه سيقتل بأمر الرسول . . تضطرب بعوامل

البر بالأب وصدق الإيمان والنخوة العربية والحرص على سلامة المسلمين . . إنه لا يطلب عفوا عن أبيه ، ولكن يطلب ألا يقتل بيد غير يده هو حتى لا يتعرض قاتله للثأر . . فهو يريد أن يقتل أباه وأن يحمل رأسه بيده إلى قائده . . وهنا تبرز معالم العلاقة بين القائد وجنده وتتضح أبعادها إذ قال له الرسول الكريم ، « إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

لقد أقام الرسول علاقته بجنده على أسس راسخة من الثقة المطلقة والحب والتقدير والاحترام وعلى هذا الطريق سار أبو بكر من بعده عليه السلام

خرج أبو بكر يودع جيش أسامة بن زيد بعد تولية الخلافة مباشرة، فسار مع الجند على قدميه ، وأسامة راكب ، وغلب الحياء أسامة إذ رأى خليفة رسول الله وصاحبه وقائد المسلمين وصاحب الأمر والنهى فيهم يسير إلى جانبه ، فأراد أن ينزل « يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن » فقال له أبو بكر على مسمع من أفراد الجيش « والله لا تنزل ووالله لا أركب . . وما علىّ أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة » . .

القائد الأعلى لجيش المسلمين يسير على قدميه والجيش راكب..
أي مثل هذا الذي يقدمه أبو بكر للجند . . أنه يريد أن يلقن الجيش درسا في ضرورة قيام العلاقة بين الجند والقائد على الاحترام والتقدير...
إنه يعرف أن المسلمين كانوا قد اعترضوا على تعيين أسامة قائدا للجيش لأنه كان صغير السن ، وطلبوا من عمر أن يكلمه في أن يولي أمرهم رجلا اقدم سنا من أسامة . . لهذا أراد بتصرفه أن يزيد الجند أذعانا لأمارة أسامة وتسليمها بها .

وكان أبو بكر يغضب أشد الغضب حين يعرف أن جنديا من المسلمين قد قتله الأعداء فهو يحرص على جنود الإسلام حرصه على سلامته هو ، ولهذا أمر خالد بن الوليد : « لا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به جهرة » .

وطلب عمر أكثر من مرة من أبي بكر أن يعزل خالد بن الوليد، فقال مرة : « إن في سيف خالد رهقا وحق عليه أن يقيده » ولكن أبا بكر يعرف من خصال خالد ما يجعله موضع ثقته ورضاه ، فأبى أن يعزله ، لأنه كان يدرك تماما أن خالدا هو سيف الله المسلول الذي سيواجه الفرس والروم، والذي سيحقق للمسلمين الانتصارات المرجوة،

ولهذا أراد أن يبقيه حيث هو قائلا لعمر « لا ياعمر ما كنت لأشيم سيفا سله على الكافرين » .

وهذا القول يسلط الضوء على ثقة القائد الأعلى للمسلمين بأحد رجال الإسلام وجنده ، فهى ثقة لا تتزعزع بقوة خالد وإيمانه وبقدراته التى أثبتت وجودها وكيانها فى خدمة الإسلام وخدمة المسلمين ، حتى أن أبا بكر قال فيه « عقمت النساء أن يلدن مثل خالد » و « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وكتب أبو بكر إلى يزيد بن أبى سفيان « إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم ، وابدأهم بالخير ، وإذا وعظتهم وعدهم إياه ، وعظتهم فأوجز . . » وهذه النصيحة من أبى بكر تحمل معنى كبيرا . .

فهو لا تكفيه العلاقة الطيبة بينه وبين جنده ، ولكنه يريد لمثل هذه العلاقة أن تقوم بين قادته وجنودهم ، ولهذا فهو يوصى القادة بالجند ويطلب منهم أن يترفقوا بهم وأن يحسنوا صحبتهم .

وعلى طريق رسول الله عليه السلام سار عمر بن الخطاب حين ولى أمر المسلمين .

فمع بداية عهده بعث إلى أبى عبيده بن الجراح بعد أن ولاه

قيادة الجيش الإسلامى فى الشام بكتاب قال فيه « لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تسترده لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى هلكة . » فى هذا الكتاب احساس بمسئولية القائد الأعلى تجاه جنده ، فهو المسئول الأول عن سلامتهم ولهذا فهو ينقل المسئولية كاملة إلى قائد الجيش وينير أمامه الطريق ويوضح له معالمه ويدعوه إلى المحافظة عليهم .

ووقف عمر بجانب المسلمين الذين فروا فى موقعة الجسر وعادوا إلى بلدهم معاداهم المسلمون وعيروهم على فرارهم وجبنهم . . وقف عمر إلى جانبهم يخفف عنهم ويرق لهم ويدفع لوم الناس بهم وسطخهم عليهم ، وكان يقول : « اللهم كل مسلم فى حل منى ، أنا فئة كل مسلم ، من لقى العدو وفظع بشىء من أمره فأنا له فئة .. يا معشر المسلمين لا تجزعوا أنا فئتكم وإنما انحزتم إلى ، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إلى لكنت له فئته » .

إن الخليفة يعلم أن الحرب نصر وهزيمة ، فإذا هزم المسلمون فى معركة فإنهم سينتصرون لامحالة فى معارك قادمة ، وأن الواجب يحتم على الناس أن تقف إلى جانبهم وأن تقدر ظروفهم وأن تعينهم

وتشجعهم وتأخذ بأيديهم وتفتح أمامهم باب نصر جديد .

وأحس المسلمون المقاتلون بموقف عمر منهم فتشجعوا واندفعوا إلى القتال بروح الاسلام وبعزيمة الإيمان وبقوة العقيدة فكانت انتصاراتهم التى هزت التاريخ .

ولم يكن اهتمام الرسول وأبى بكر وعمر بالجند هو الأمر الظاهرى تاريخ القيادة العسكرية الاسلامية وإنما كانت هناك اهتمامات بالغة من جانب القادة على مختلف المستويات ، وكانت العلاقة بين هؤلاء والجند علاقة ود وحب واحترام وتقدير ، دعت إليها وحدة الهدف ووصايا الرسول وخلفائه من بعده ، فلم يكن هناك تباعد بين القادة والجند ، وإنما كان هناك امتزاج روحى وعاطفى ، وانسجام فكرى عقائدى ، ورابطة تقوم على الثقة والإيمان .

كان القادة يحرصون على سلامة جندهم . . لا يلقون بهم إلى هلكة ، ولا يجبرونهم على أمر ولا يتشددون فى موقف ، ولا يتميزون عنهم فى شىء ، يعيشون معهم ويقاتلون بجانبهم ويشاورونهم فى الأمر ، لا فرق بين هذا وذاك ، إلا بمقدار الجهد والبذل والعطاء ، ويصفهم رجل من رجال المقوقس فيقول : « رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من

الرفعة ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد » ، ويسمع المقوقس هذا الوصف فيقول لأصحابه : « والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقدر على قتال هؤلاء أحد » ، ويصفهم أيضاً الخليفة عمر فى قوله لسعد بن أبى وقاص : « الناس شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة » .

جاء رجلان من دهاقين الفرس هما مزدخ وفرنداذ إلى أبى عبيد ابن مسعود قائد الجيش الإسلامى فى العراق وقدما له آنية فيها بعض الأطعمة الفارسية وقالا له : « هذه كرامة أكرمناك بها قرى لك » فسألهما أبو عبيد : « أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم ؟ » ، فأجاباه : « لم يتيسر لنا ونحن فاعلون » فاعتذر عن تناول الطعام لأنه لا حاجة له فيما لا يسعه ويسع جنده ، ورد إليهما آنية الطعام دون أن ينال منها شيئاً قائلا : « لا حاجة لنا فيه ، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم ، وأهرقوا دماءهم دونه ، أو لم يهرقوها ، فاستأثر عليهم بشىء يصيبه ، لا والله لا نأكل مما أفاء الله عليهم ، إلا مثل ما يأكل أوساطهم » ، وهكذا أبى أبو عبيد قائد المسلمين أن يكرمه أعداؤه

بشىء لا يكرم به إخوانه الجنود ، فهم قد خرجوا معه معاهدين الله على البذل ، وليس المجال مجال تمييز أو مجال تفاخر ، ولكنه مجال جهاد ؛ وهم جميعاً فى جهادهم إخوة متحابون لا فرق بينهم أبداً ، فما يحرم على الجند يحرم على القائد ، وما يستبيحه القائد لنفسه يباح لجنده . . وهكذا كانت العلاقة بين أبى عبيدة وبين جنده . . علاقة تقوم على الثقة والاحترام والتقدير .

ولعلنا نذكر فى هذا المجال ما كان عليه الحجاج بن يوسف الثقفى من شدة وقسوة على جنده ، فقد كان يأخذ جنده بالشدة حتى من ولى منهم منصب القيادة ، وكان على حد قوله فى رسالة إلى أحد قادته . « إنى أرى أن آخذ الولى بالولى والسمى بالسمى » ، وقد اشتهر الحجاج بأنه قد أساء إلى كثير من قادته وجنده ، كان شديداً حتى فى موضع اللين ، عجولا متسرعا مع قادته ، جريئا على أقدار الرجال ، محبا لسفك الدماء ، فحاشا سبابا ، كان يصف نفسه فيقول : « أنا لجوج حسود حقود ذو قسوة » ، ومن أجل هذا كرهه جنوده ، وبدا هذا الكره واضحا فى الثورات المتعددة التى قامت ضده ، كثورة شبيب وهو من الخوارج ، وثورة مطرف بن المغيرة ، وثورة عبد الرحمن ابن الأشعث .

ولكن لم يكن للحجاج شبيه أو زميل نسى أو تناسى منهاج الرسول ومنهاج خلفائه فيما يجب أن تقوم عليه الصلة بين القادة والجند . . إن الحجاج بسلوكه يعتبر نشازا فى تاريخ القيادة الإسلامية بالرغم من أنه كان صاحب فضل لا ينكر فى اتساع رقعة الدولة الإسلامية فى عهد الحكم الأموى ، فقد تم خلال ولايته فتح بلاد الختل ونيزك وخراسان وبخارى وخوارزم وسمرقند ، ووصلت فتوحاته إلى بلاد الهند والصين .

إن القيادة العسكرية الإسلامية قد نبهت الأجيال العسكرية التى جاءت بعدها إلى أهمية خلق صلة قوية راسخة بين القائد وجنده . . فالقائد وحده — مهما بلغ من مراتب الفن العسكرى ومهما كانت قدراته وإمكانياته — لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا لم يكسب ثقة رجاله ، وإذا لم يشعر رجاله بأن مصالحهم وحياتهم مصونة بين يديه . . إذا فعل القائد ذلك فإنه يمتلك رصيدا لا يقدر وقوة لا تهزم وجيشاً ينتصر فى ثقة وأمل وعزم .

إن القيادة العسكرية الإسلامية قد وضعت مبدأ هاما وخطيراً فى ذات الوقت ، وقد قامت بتجربته فى حروبها المتعددة فى مختلف عهودها ، وأثبتت التجربة نجاحا بعيد المدى ، حتى أصبحت العلاقة

بين القائد والجند هى الأساس الأول الذى تعتمد عليه المعركة — أية معركة — فالجندى يخرج إلى الميدان وسلاحه فى يد وروحه فى اليد الأخرى يواجه الموت فلا يخافه ويلقى الأهوال فلا يجبن ، فقائده موضع ثقته وهو يؤمن به . . والقائد الذى وضع كل آماله فى جنده يتقدمهم تجمعه وإياهم أهداف سامية وغايات نبيلة ، وتحيط بهم زمالة تجعله وإياهم يشعرون بالدفء ويحسون بالشجاعة يكسب الجميع المعركة بفضل تعاونهم وتضامنهم وبفضل العلاقة الطيبة التى ألفت بين قلوبهم وأفكارهم ، ومشاربهم .

بهذا آمنت القيادة العسكرية الإسلامية .

وبهذا آمنت من بعدها القيادات العسكرية الأخرى .

وفى سجلات الحروب التى قامت بعد الإسلام تثبت هذه الحقيقة وتتضح ، فكل القادة على مختلف مستوياتهم كانوا يتقربون من جندهم ويخلقون نوعا من الصداقة معهم ، يعيشون بين صفوفهم يحدثونهم ويقضون معهم وقتا ممتعا يحس خلاله الجند بعلاقة قوية تجذبهم إلى قادتهم ، كما يحس القائد بأنه قد أصبح قريباً إلى قلوب جنده ، وأنهم يؤمنون بالعمل تحت قيادته .

هكذا فعل نابليون . . فقد حرص على أن تجمع بينه وبين جنده

روابط قوية تقوم أساساً على الثقة المتبادلة!.. ومن أعظم ما سجله له تاريخ الحرب أنه استطاع أن يفتح سبول لمبارديا بجيش من الحفاة العراة وكان العامل الرئيسى فى إحراز هذا النصر هو علاقته بجنده.. خاطب جنده عند مسيره إلى إيطاليا فقال: «إنى أراكم تحتاجون إلى الكثير مما تستحقون وهأنذا على رأسكم أسير بكم إلى المواطن التى تكسبكم العزة والفخر والغنيمة»، وخاطب يوما أمته فقال متحدثا عن جيشه: «لا ريب فى أننى استطيع فتح العالم بهؤلاء الرجال».

وهكذا فعل روميل ومونتجمرى وغيرهما من القادة العظام الذين امتلأت بسيرهم سجلات الحروب الحديثة.. يقول مونتجمرى فى ذلك: «إننى كنت أتحدث مع جنودى كلما أمكن ذلك».

ومن أهم ما لوحظ خلال الحرب العالمية الأولى أن السير دوجلاس هيج كان لا يميل إلى لقاء جنده فبعدت الثقة بينهم وبينه، وفقد جنوده صلتهم به وكان منهم كثيرون لا يعرفونه وتداعت الصلة بين القائد والجند، وأحس أحد أركان حربه بخطورة هذا التصرف، فأشار عليه بأن يلقاهم ويقضى معهم بعض وقته ليعرفوه عن كثب ويعرفهم هو نفسه.

حقاً لقد كانت القيادة العسكرية الإسلامية رائدة . .

وستظل . .

٣ — روح القتال :

مقدمة العوامل التى يترتب عليها نجاح الحروب وتؤدى إلى كسب المعارك روح القتال . . وروح القتال تشمل صفات الجند واخلاقهم وحسن انتظامهم وشجاعتهم واخلاصهم وقوة قادتهم وإيمانهم بأحقية الغرض الذى يحاربون من أجله .

ومما لاشك فيه أن روح القتال هى العامل الهام فى المعركة ، فالعدد والسلاح لا يتومان مقام الشجاعة والاقدام والرغبة من احراز النصر . . . وتوافر روح القتال هى التى تجعل الفرد يقدم على الحرب بعزيمة الرجال وقوة الابطال .

وروح القتال تعنى الروح المعنوية .

ولقد ذكر المارشال مونتجمرى فى كتابه « تاريخ الحروب » أن أعظم عامل من العوامل المؤدية إلى تحقيق النجاح هو روح للقاتل . . أنه لأمر هام جوهرى أن يفهم المرء أن المعارك انما تكسب أولا وقبل كل شىء فى قلوب الرجال . . » .

والإنسان يملك طاقة روحية لا نفاد لها ، يستطيع أن يوجهها إلى نصرة الحق والدفاع عنه ، وهى دون شك أمضى من كل سلاح مادى ، وبهذا فقد اهتم الإسلام بأن يسير الاعداد الروحى لأفراده المقاتلين جنبا إلى جنب مع الاعداد المادى .

ولقد جعل الإسلام من جهاد النفس وتسليحها بفضائل الأخلاق جهادا أكبر وهو فى ذات الوقت اساس متين لجهاد الاعداء بالسلاح ، وهو ايضا الضمان الاكيد لاحراز النصر فى أية معركة ، وفى هذا المعنى كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص يقول . « انى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليكم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لان عددنا ليس كعددهم ، فإذا استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة . . .

فعمر فى رسالته يأمر جنده بتقوى الله ، لأنها القوة الروحية التى تعد أقوى وأمضى سلاح ضد العدو وأعظم مكيدة فى الحرب ، فهى دليل الإيمان بالله وبرهان الثقة بالنفس ، ولا يهزم جيش سلاحه الإيمان

والثقة . . . والإيمان والثقة هما عماد الروح المعنوية ، وهما نقطة البداية في روح القتال .

ولقد سعى الإسلام إلى أن يدعم في نفوس رجاله مبدأ الثبات على المبدأ أو الثبات على الحق ، فالمسلمون لم يخوضوا معركة مع أعدائهم إلا من أجل احقاق الحق وازهاق الباطل ، وكم لاقوا في ذلك المشقات وقامت في طريقهم العقبات ، فلم يفقدوا إيمانهم بحقهم وبمبادئهم وبمثلهم ، ومن هنا نصرهم الله في مواطن كثيرة بفضل إيمانهم بأنهم على الحق ، وقد قال الله تعالى مثبتا لهم « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، وأشار تعالى إلى فضيلة الثبات على الحق في قوله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

وبذلت القيادة العسكرية الإسلامية جهدا كبيرا لخلق الرجاء في الله عند المسلمين . . والرجاء يقارنه عمل متواصل شاق في سبيل ما يسعى إليه الإنسان وبهذا يكون الرجاء دائما إلى العمل الإيجابي فيه تحيا القلوب فتدرك قيمة النصر وتسعى إليه .

والصبر سلاح يتسلح به المجاهد المقاتل ، فهو أمضى سلاح ضد قوى البغي والطغيان ، وقد قيل : إن الصبر من الإيمان كالرأس من

الجسد ، يقول الله تعالى فى محكم آياته : « يا أيها الذين آمنو اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ، وفى هذه الآية يوضح تبارك وتعالى للمسلمين أربعة مبادىء يجب أن يتحلى بها الجندى المسلم هى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى وهى من أجل واظهر الصفات التى تقوى عليها روح القتال وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » .

فى بدر استقبل الرسول القبله واتجه بكل نفسه إلى ربه وجعل ينشده ما وعده وأخذ يردد « اللهم هذه قريش قد اتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . . . اللهم فنصرك الذى وعدتنى » .

هذا الاتجاه إلى الله عرفه كل مسلم مقاتل وأدركه ، إذ آمن بأن هناك وعدا من الله تبارك وتعالى بنصره ومؤازرته ، ولهذا كان يدخل المعركة معتمدا على الله وهو يردد فى إيمان مطلق بالله قول رسول الله عليه السلام « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

لقد كان كل مسلم يؤمن بأن لله إرادة فى أن يرتفع العالم إلى الكمال ، وأن تنقذ الإنسانيه المحطمة المنهارة ، وأن تسموا القيم الأخلاقية ، وكان الطريق إلى تحقيق إرادة الله أن يسعى الجند المسلم

إلى ابلاغ رسالة الله ، فإن قبلها أعداؤهم فقد حفظوا أنفسهم وحياتهم ، وإن أبوا إلا أن يطفئوا نور لله فإن واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا القوة التي يتم الله بها نوره ولو كره الكافرون .

ومن خلال هذا المعنى استهان المسلمون بالموت فى حنين حين دهمتهم قوى هوزان وبنى سعد بقيادة مالك بن عوف إعتماداً على أن الله معهم يشد من أزرهم ويدعم بقوة يغلبون بها قوى عدوهم التى احتشدت أمامهم تسد عليهم السبل وتقطع أمامهم الطرق ، وصدق إيمانهم فقد هزموا أعدائهم ففروا من أمامهم وغنم المسلمون مغانم كثيرة ، ونزل فى ذلك قول الله تعالى : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين ، إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا » .

وكان إيمان أبى بكر على ذات مستوى المسئولية التى ألقت على عاتقه بعد أن بايعه المسلمون بالخلافة فى سقيفة بنى ساعدة ، فقد واجه فى أول عهده اضطراباً أصاب العرب حين أبى بعضهم أداء الزكاة له لقد صمم أبو بكر على أن يحفظ للإسلام مبادءه وأركانه ، وأن

يصون المسلمين من أية فتنة تطل برأسها ، ولهذا قرر أن يحارب هذا البعض ، وقال لأصحابه وأولى الأمر من المسلمين : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » وقاتلهم أبو بكر فى ذى القصة وانتصر عليهم بفضل إيمانه الصادق الذى لا يغلبه فى الحياة غالب ، لأنه كان يستهين بالموت ويسمو لذلك على كل ما فى الحياه ، هذا الإيمان الصادق هو الذى حفظ الإسلام فى صفائه وكماله فى ذلك الوقت الدقيق الحرج الذى كان يومئذ يتخطاه .

وملك الإيمان روح خالد فجعل منه قائداً ينتصر باسمه ويخشاه عدوه قبل أن يلقاه ، وبهذا الإيمان اندفع خالد فى بلاد العراق ينتقل من نصر إلى نصر لا يهاب قوة ولا يخشى عدواً ، سيفه فى يده وإيمانه فى قلبه وثقة رجاله تحيط به .. إنه رأى عدوه قد سار إليه بجيش كثيف العدد يقوده القائد جابان وهو من أكبر وأخطر قادة الفرس ، فاتجه إلى جنده ليعرف مدى استعدادهم للقتال فوجدهم جميعاً مستميتين فيه صابرين عليه فى جلد وبأس واصرار ، فاتجه إزاء هذا الشعور العظيم من جانب رجاله إلى ربه يستنصره ويقول : « اللهم إن لك على أن منحتنا أكتافهم إلا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه حتى

أجرى نهرهم بدمائهم » ، واستمر القتال فترة تداعت خلاله قوة الفرس وعيل صبرهم ، ولم يبق لهم من الهزيمة مفر وتحطمت صفوفهم ، فانقلبوا على أعقابهم يسارعون إلى الهرب ولا مأرب لهم إلا النجاة ورأى خالد فرارهم ، فأمر مناديه فنادى فى رجاله « الأسر . الأسر . لا تقتلوا إلا من امتنع » وجاء الأسرى وكانوا كثيرين فضرب خالد أعناقهم لتبر يمينه أن يجرى نهرهم بدمائهم .

إن خالد بن الوليد الذى حقق أعظم إنتصارات فى تاريخ الإسلام يتلقى أمر عزله بروح إسلامية تصور مدى إيمانه العميق ، فهو لم يشأ أن يعلن نبأ العزل بينما معركة اليرموك على أشدها فلما انتصر المسلمون دعا أبا عبيدة بن الجراح وسلمه القيادة ثم قال لحامل البريد الذى جاءه بأمر العزل : « بلغ أمير المؤمنين أن من حقه أن يعزلنى عن القيادة ، ولكنه لا يملك أن يجردنى من سيفى ، فسأظل حاملا هذا السيف فى خدمة أمتى » ، وعاش خالد جنديا بسيطا تحت إمرة أبى عبيدة يتلقى منه الأوامر وينفذها . . وحاول بعض الجند أن يثيروا خالداً حتى يمتنع عن الإمتثال لأمر الخليفة ، ولكن إيمانه كان أكبر من أن يجعله يواجه

الخليفة فى حق يملكه ، وأن يخالفه فى وقت يواجه فيه المسلمون أعداءهم وأن يجعله ينسى أنه مكلف بأن يطيع أولى الأمر .. وبقى خالد جنديا تتحكم فيه قوة الإيمان بعظمة الإسلام الذى يسمو بصاحبه إلى آفاق لا يحسب فيها الأشخاص والأشياء حساب ، ولا يعرف فيها الغل ولا الضغينة ؛ فالأشخاص فانون والأشياء زائلة ، والأحداث منقضية ، أما الإسلام فخالد لا يزول .

وخلال المعارك الكثيرة التى دارت بين المسلمين والفرس كانت روح القتال تسيطر تماما على هذه المعارك ، وكانت الدعامة الأولى فى انتصار المسلمين .

ففى موقعة البويب تولى مهران الهمذانى قيادة جيش الفرس ، وكان مهران قائداً طموحاً فتقدم بقواته التى بلغت أثنى عشر ألفاً ، وواجه المثنى فى موقع يسمى بسوس قرب الكوفة ، ثم عبر نهر الفرات .. وكان على راس المسلمين المثنى بن حارثة فمر بصفوفهم وهو يردد : « إنى لأرجو ألا تؤتى العرب اليوم قبلكم ، والله مايسرنى اليوم لنفسى شىء وهو يسرنى لعامتكم » . وأخذ ينشط الهمم ويقوى العزائم ويشد نفوس أهل الحرب ويحرض الناس على القتال ، وعندما حانت ساعة الصفر وقبل أن يشن المسلمون هجومهم فاجأهم الفرس

بالهجوم، فاختلت — لشدة المفاجأة ولقوة الهجوم — صفوف المسلمين ودعا المثنى للمسلمين « لا تفضحوا المسلمين اليوم » ودار القتال عنيفاً قاسياً والجند المسلمون لا يبالون بالموت بل هاجموا أعداءهم حتى قتل مهران فتضعضعت قوى الفرس، بينما صوت المثنى يملأ أرض المعركة: « عاداتكم من أمثالكم أنصروا الله ينصركم » وأحاط المسلمون بالفرس من كل جانب وأخذتهم السيوف، وسمى يوم البويب بيوم الأعشار، لأن مائة من العرب قتل كل منهم عشرة من الفرس الذين بلغ عدد قتلاهم مائة ألف.

وعندما تولى سعد بن أبي وقاص قيادة الجيش الإسلامى فى العراق، اهتم اهتماما بالغاً بالقوى المعنوية، أى بروح القتال، ندعا جماعة من أولى الرأى كالمغيرة وعاصم بن عمرو بن معدى كرب وجماعة من الشعراء مثل: الشماخ والحطيئة وعبدة بن الطيب وقال لهم: « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس، فأنتم من العرب بالمكان الذى أنتم به.. أنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم، وأنتم سادتهم، نسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال »، وانطلق هؤلاء بين الصفوف يحدثون الجند ويثيرون المشاعر والعواطف.. قال الهزيل الأسدى:

« يا معشر معد اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليها كأسود الأجم ، وتربدوا لهم تربد النمور ، وأدرعوا العجاج ، وثقوا بالله ، وغضوا الأبصار ، فإذا أكلت السيوف فأرسلوا عليها الجنادل ، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » ، وقال عاصم بن عمرو : « يا معاشر العرب ، إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ، ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شينا على العرب غداً » ، وخطب عدد آخر من الناس فتحاضوا على الطاعة والصبر وتعاهدوا على النصر أو الموت ، وأمر سعد بأن تقرأ سورة الجهاد فقرئت من كل المواقع .

ثم كانت معركة القادسية بأيامها الثلاثة يوم أرماث ويوم أغواث ويوم عماس . . كانت معركة بلغ فيها القتال أعنف صوره ، وصوت طليحة يجلجل فى أرجاء المعركة مخاطبا المسلمين : « شدوا ولا تصدوا وكروا ولا تفروا ، شدوا عليهم باسم الله » .

وبرزت فى المعركة أسماء عربية لها قيمتها فى مجالات الحرب والنزال كالقعقاع بن عمرو الذى هد صفوة الفرس وقتل بهمن جاذوبة وقتل معه فى يوم واحد ثلاثين رجلا . . . وكأبى محجن الثقفى الذى

قتل الفيل الأبيض الذى كان يفرق جموع المسلمين ويفتك بهم . . .
وكهاشم بن عتبة وطليحة وهلال بن علقمة وزهرة بن الحوية وغيرهم ممن كانوا مثلا فى الشجاعة والجرأة ، والصدق ، والبلاء الحسن ، لقد انتصر المسلمون فى القادسية نتيجة لروح القتال التى سادت أرض المعركة .

ولا نستطيع أبداً أن نغفل ما قام به طليحة بن خويلد الأسدى فى معسكر أعدائه ، فإن ما قام به دليل على ما كان يتميز به من صفات المحارب ومعنويات المقاتل . . لقد دخل معسكر أعدائه وحده وقتل اثنين من فرسانه وساق جواديهما وغادر المعسكر ، فلمحه بعض من أصحاب رستم نطاردوه بغيـة قتله ، نقتل اثنين منهما وأسر الثالث وارتد الباقى ، ونترك أسيره يحكى المغامرة العظيمة فيقول : « باشرت الحروب منذ أنا غلام وسمعت بالأبطال فلم أسمع بمثـل هذا . . إن رجلا قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفاً فلم يرض أن يخرج كما دخل سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوتات ، فلما أدركناه قتل الأول وهو يعد بألف فارس ، ثم الثانى وهو نظيره ، ثم أدركته أنا ، وخلفت من بعدى من يعدلنى ، وأنا الثائر بالقتيلين فرأيت الموت واستؤسرت » .

التقى رستم قائد الفرس بالمغيرة فسأله : « إنكم تموتون فيما تطلبون » ، فقال المغيرة : « يدخل من قتل منا الجنة ، ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقى منا على من بقى منكم » .

والتقى المقوقس صاحب مصر بعبادة بن الصامت فقال له عبادة : « ما من رجل إلا ويدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا أهله وولده وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه وأهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا » .

وأسلم ولدان من أبناء أبي أحيحة هما خالد وعمرو فلما سمع بدخولهما فى الإسلام ، وكان مريضاً قال : « لئن رفعنى الله من مرضى هذا لا يعبد آله ابن أبي كبشه (يقصد رسول الله) ببطن مكة » ، وكان ولداه فى الحبشة مهاجرين فلما بلغتهما مقالة أبيهما قال خالد مناشدا ربه : « اللهم لا ترفعه » فإن يموت أباه ويحيا الإسلام خير عنده من أن يحي أبوه ولا يعبد رب محمد ، فالإسلام عنده خير من أبيه وأفضل ، وكيف يصل الإسلام إلى هذا المستوى فى قلب خالد وعقله إن لم يكن إيمانه به أعظم وأجل وأكبر .

ولم تكن روح القتال متوفرة عند المسلمين الأوائل فقط ،

وإنما توارثتها الأجيال المسلمة جيلا بعد جيل ، وبقيت روح القتال سائدة فى جميع المعارك التى خاضها المسلمون ، فمهدت لهم طريق النصر .

فطارق بن زياد يخوض ضد أهل الأندلس معركة كبيرة وخطيرة فى وادى بكة .. كان جيش عدوه ستة أضعاف جيشه ، هكذا قال ابن بول وهو يصف جيش ردريق « إن جيش ردريق ستة أضعاف جيش المسلمين » وأرسل ردريق من يأتيه بخبر عن المسلمين فجاءه يقول له : « شهدت معسكر المسلمين . . لقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم إياسا لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب » ، واستمر القتال بين الطرفين ثمانية أيام انتصر فيه المسلمون انتصارا رائعاً ، فقد حاربوا بكل إيمان عميق وإخلاص مطلق وعقيدة راسخة ، وأمل فى الله ورغبة فى النصر ، وتأثروا بقول قائدهم طارق وقد أحرق الاسطول : « لقد استقبلكم عدوكم بجيش كبير وأسلحته وقواته موفورة ، وأنتم لا ملجأ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه لكم من أيدى عدوكم . . إنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم ردريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده

فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه » ، وكان لكلماته هذه أثر السحر عند رجاله ، وقد وصف التلمسانى فى كتابه « نفح الطيب » ذلك الأثر فقال : « انبسطت نفوسهم وتحققت آمالهم وهبت رياح النصر عليهم » .

وكان لسيف الدولة دور كبير ضد الروم ، وكانت روح الحرب عنده وعند رجاله هى الروح الموروثة من أيام الإسلام الأولى ، ووصف الحافظ الذهبي فى كتابه « تاريخ الإسلام » شجاعة جند سيف الدولة فى قتال الروم فقال : « وأخذت عليه الدروب ، وحالوا بينه وبين المقدمة وقطعوا الشجر وسدوا به الطرق ، ودهدهوا الصمور فى المضايق على الناس ، والروم وراء الناس يقتلون ويأسرون ، ولا منفذ لسيف الدولة ، وكان معه أربعمائة أسير من وجوه الروم فضرب أعناقهم وعقر جمالهم ، وظل يقاتل فى نفر يسير قتال الموت حتى نجا » .

ووصف الثعالبي روح القتال عنده وعند رجاله فقال : « سار سيف الدولة لبناء قلعة عظيمة الشأن فجمع ملك الروم عظماء أهل مملكته وجهزهم بالصليب الأعظم ، وعليهم فردوس الدمستق فى عدد لا يحصى حتى أحاطوا بمعسكر سيف الدولة ، والتهبت الحرب

واشتد الخطب وساءت ظنون المسلمين ، ثم أنزل الله نصره ، فحمل سيف الدولة طالبا الدمستق فولى هاربا ، وأسر صهره وابن ابنته وقتل خلق كثير من الروم » .

ووصف المتنبي هذا الموقف فقال :

سرياك تترى والدمستق هاربا وأصحابه قتلى وأمواله نهبى

ولقد سيطرت روح القتال الإسلامية بكل مقوماتها على المسلمين الأبطال الذين واجهوا الحملات الصليبية على بلدان الشرق العربى ومصر ، فهزموهم شر هزيمة وأسروا ملكهم فى مصر ، وطردوهم من البلاد التى كانوا قد وضعوا أيديهم عليها . . . والذين واجهوا حملات المغول والتتار فهزموهم هزيمة منكرة وانقذوا ملك المسلمين وأرضهم وردوهم إلى خارج حدود الدولة الإسلامية .

إن المسلمين فى كل عهودهم كانوا يلاقون أعداءهم بقوة وعزم وتصميم وإيمان راسخ وعقيدة ثابتة وقلوب مؤمنة وعقول واعية وشجاعة نادرة ، وهذه كلها هى مقومات روح القتال .

وعلى الجانب الآخر لم تكن الجيوش التى واجهت جيوش المسلمين على ذات المستوى فى روح القتال فقد كانت تنقصهم الدوافع

النفسية والمعنويات اللازمة للقتال ، لهذا انهزموا أمام المسلمين . . .
وكانوا يفتقرون إلى روح القتال حتى أن خالد بن الوليد كان يصفهم
بقوله : « انما أرى أقواما لا علم لهم بالحرب » .

٤ — الالتزام بالخطة :

كان المقاتلون من المسلمين على مختلف مستوياتهم يلتزمون بالخطة
التى وضعها القائد الأعلى أو قائد الجيش ، وكانوا يحرصون على تنفيذها
بالصورة التى انتهت إليها .

ولاشك فى أن الالتزام بالخطة يجعل الأهداف واضحة والوجبات
محددة ، وخط التنفيذ معروف ، فيفهم كل فرد واجبه ومسئوليته ،
وفى حدود هذا الواجب وهذه المسئولية يتصرف :

فى بدر خرج وجهاء قريش وزعماؤها على رأس الخارجين يحرضون
على قتال المسلمين وكان من هؤلاء أمية بن هشام ، وهما من أشد
المشركين على المسلمين وكانت خطة المسلمين أن يوجهوا همهم الأول
بل الأكبر إلى سادات قريش وزعمائها فيستأصلوهم جزاء وفاقا لما
صدوهم عن المسجد الحرام ولما اثاروا عليهم الناس والقبائل . .
والتزم المسلمون بهذا الخط ورأى بلال ، أمية بن خلف فصاح به « أمية

رأس الكفر لا نجوت إن نجا » ثم قتله ، وقتل معاذ بن عمرو بن الجموح أبا جهل بن هشام ، وقتل شيبة بن عتبة ..

ولعل الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في أحد ترجع أساسا إلى عدم التزام المسلمين بالخطة التي وضعها رسول الله .. ففي هذه الغزوة رأى الرسول أن يجعل الجبل إلى ظهورهم واختار خمسين من الرماة ووضعهم على شعب في الجبل تحت قيادة عبد الله بن جبير ، وأصدر أوامره إليهم صريحة تحدد واجبهم « احموا لنا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئونا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وأن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل » .

كان الواجب صريحا واضحاً لا غموض فيه يتركز في حماية ظهر المسلمين وعدم مغادرة المواقع نهائياً وعدم الاشتراك في القتال في حالتي الهزيمة والنصر ، وأبعاد الخيل عن أرض المعركة برشقها بالنبل ، ولكن الرماة لم يلتزموا بهذه الحدود وتركوا الخطة التي وضعها الرسول جانباً . فعندما شاهدوا ثلاثة آلاف من فرسان قريش تتمزق أمام هجمات ستمائة مسلم قال بعضهم وقد استخفه الفرح والطمع حين رأى المغانم التي خلفتها قريش تزحم الجبل : « لم تقيمون ها هنا

فى غير شىء وقد هزم الله عدوكم وهؤلاء إخوانكم ينتمون عسكرهم فادخلوا فأغنموا مع الغانمين » ، وتنبه واحد منهم إلى خطورة هذا القول ، وأراد أن يذكر القوم بأوامر الرسول فقال لهم : « ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا تقتل فلا تنصرونا » ، تذكرة واضحة لمن نسى ، ولكن الطمع فى الغنيمة جعل بعض الناس يقول مبررا الدعوة إلى مخالفة الأوامر « لم يرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذل الله المشركين » ، وتنبه قائدهم إلى خطورة الدعوة فطلب منهم أن لا يخالفوا أمر الرسول فعصوه ، وانطلقوا ، ولم يبق معه إلا نفر دون العشرة ، وشاهد خالد — وكان على فرسان قريش — خلو الجبل من الرماة ، وهو موقع استراتيجى هام ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبى جهل فحملوا على الباقين وقتلوهم ، وتحولت نتيجة المعركة من نصر إلى هزيمة ، لأن فئة من المسلمين لم تلتزم بالخطة الموضوعية .

وفى الخندق نجح عمرو بن عبدود فى اقتحام الخندق ودعا الناس إلى المبارزة فتهيب كثيرون لقاءه ، ولم يخف أحد إليه ، فأخذ يكرر الدعوة قائلا : « أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم يدخلها ، أفلا تبرزون لى رجلا ؟ فقام علىّ يريد منازلته فمنعه الرسول خوفا عليه

قائلا : « إجلس إنه عمرو » ، فأصر عليّ وقال : « وأنا على » ، فأدناه الرسول وقبله وعممه بعمامته ، وخرج معه خطوات كالمودع له القلق عليه المنتظر لما يكون منه ، ثم تركه وهو يقول : « الآن برز الإسلام كله للشرك كله » ، ثم اتجه إلى ربه مناجيا : « اللهم أعنه عليه . . اللهم هذا أخى وابن عمى فلا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين » .

فلما التقى على وعمرو قال على : « يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خصلتين إلا قبلتهما فأنى أدعوك إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الإسلام» ، فأجابه عمرو « لاحاجة بى لذلك » ، فدعاه على إلى المبارزة فقال له عمرو « يا ابن أخى ، من أعمامك من هو أشد منك فأنى أكره أن أريق دمك ، وإن أباك كان صديقا لى ، ووالله ما أحب أن أقتلك» وفى قول عمرو استهتار بمكانة على كمحارب ، وكانت فرصة تجنب هذا اللقاء كبيرة ، ولكن عليا خرج من صفوف المسلمين ليحقق أمرا وليؤدى واجبه فكان لابد من أن يلتزم بالخط وبهذا واجه عمرا فى شجاعة وقال له : « ولكنى أحب والله أن أقتلك » وقتله .

وفى غزوة الفتح كانت خطة الرسول تقوم على أساس دخول

مكة دون قتال . . وفى ضوء هذه الخطه قسم الرسول جنده إلى فرق يقودها رجال من المسلمين ، وكان على جماعة الأنصار سعد بن عباده ، وسمع بعض المسلمين سعدا يقول وهو يقترب من مكة : « اليوم يوم الملحمة . . اليوم تستحل الحرمة . . » وفى ذلك خروج عن الخط وعدم إلتزام بالخطة فكان لا بد من علاج سريع خوفا من أن يتطور الأمر إلى شىء يكرهه الرسول ، ولهذا رأى الرسول حين بلغه ما قال سعد أن يأخذ الراية منه وأن يدفعها إلى من يكون أحرص منه على تنفيذ الأوامر ، وتسلم ابنه قيس القيادة منه ، وسمع المسلمون جميعا قول رسول الله عليه السلام « اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله قريشا » .

وعندما تلقى خالد بن الوليد وهو فى العراق أمر أبى بكر بالتوجه إلى اليرموك لمعاونة جيوش المسلمين هناك ، رأى أن الطريق الذى يسلكه لا يصل به مباشرة إلى مواقع المسلمين ، وإنما يقوده إلى أماكن فى يد الروم مما يضطره إلى قتالهم ، وفى هذا خروج عن الخط المقرر له ، لأن مهمته هى أن يصل إلى مواقع المسلمين ، وأن يشارك معهم قتال الروم ، وخالد قائد عبقرى يعرف مدى أهمية الالتزام بالخطة ، ولذلك دعا حذاق الأدلاء وقال لهم : « كيف لى بطريق

أخرج منه وراء جموع الروم فأنى أستقبلتها حبستني عن غياب المسلمين ، فقالوا له « لانعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش يأخذه الفذ الراكب فإياك أن تغرر بالمسلمين » ، وضرب خالد بقولهم عرض الحائط وسار بجيشه فى بادية لا ماء فيها وأتى الروم من مأمنهم وفاجأهم بما لم يحتسبوا .

وفى أواخر أيام أبى بكر طلب إليه المثنى بن حارثة أن يعينه بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ، ودعا أبو بكر عمر وأوصاه فى أمر العراق « اسمع ياعمر ما أقول لك ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإن أنامت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق ، فانهم أهله وولاة أمره وحده ، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » .

هكذا رسم بكر لخليفته الخط العريض لسياسته تجاه العراق وبعد موته ، والتزم عمر بهذا الخط فما أن تولى الخلافة حتى ندب الناس إلى العراق مع المثنى تنفيذا لوصية أبى بكر « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله بذلك ، أين الطراء

المهاجرون عن موعود الله ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فإنه قال : « ليظهره على الدين كله » والله مظهر دينه ومعز ناصره ومول أهله مواريث الأمم . . . أين عباد الله الصالحون » .

كانت خطة الرسول فى نشر الإسلام تقوم أساسا على عرض الإسلام على غير المسلمين فإن استجابوا أصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وإن رفضوا عرضت عليه الجزية فإن استجابوا عاشوا مع المسلمين لا يمسون بسوء وإن أبوا لم يعد فى جعبة المسلمين سوى القتال . . .

هذه هى الخطة العامة التى وضعها الرسول وسار عليها أبو بكر وعمل فى ضوئها عمر بن الخطاب .

وعندما تولى سعد بن أبى وقاص قيادة الجيش الإسلامى فى العراق بعث إليه عمر أن يرسل وفدا إلى يزد جرد يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو المناجزة ، وأرسل سعد إلى يزد جرد وفدا يضم النعمان بن مقرن وفرات بن حيان والأشعث بن قيس وعمرو ابن معدى كرب والمغيرة بن شعبة والمثنى بن حارثة . . والتقى الوفد بيزد جرد وتحدث إليه المغيرة فقال : « اختر إن شئت الجزية ،

وإن شئت السيف ، أو تسلم فتنجى نفسك » فغضب يزدجر وقال : « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم . . لاشىء لكم عندى » .

وفى عهد عمر ازدادت الفتوحات الإسلامية ، وكان عمر مقيما فى المدينة عاصمة الدولة ، وكانت القيادات جيوشه قد بعدت عنه كثيرا ، وكان عمر يخشى أن يتورط قادته فى عمليات خاسرة تضر بالمسلمين وبالإسلام ، ولهذا قرر أن يعيش مع جيوشه وهو بالمدينة فطلب من قادته أن يكتبوا له دائما فى كل موقف ، حتى يكون فى الصورة معهم ، وحتى يعالج الأمور وإياهم ، فهو مثلا كتب إلى سعد فى العراق يقول له « اكتب إلى بجميع أحوالكم وتفاصيلها ، وكيف تنزلون ، وأين يكون منكم عدوكم ، واجعلنى بكتبك إلى كأنى أنظر إليكم واجعلنى من أمركم على الجلية » .

وكان عمر من مقر قيادته فى المدينة يرسم الخطط فى ضوء ما يبلغه من معلومات ويبعث بها إلى سعد فى العراق فيلتزم بها وينفذها دون الخروج عليها .

ومن أمثلة ذلك « إذا بلغت القادسية ، والقادسية باب فارس فى الجاهلية ، وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ، وهو منزل رغيب

خصب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر » .

ومن أمثلة ذلك « إذا كان يوم كذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القواديس وشرق بالناس وغرب بهم » .

ومن أمثلة ذلك « أن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله ، وإنه قد ألقى فى روعى أنكم ستهزمونهم فلا تشكن فى ذلك » .

ومن أمثلة ذلك « سرح هاشم بن عتبة إلى حلولاء فى اثنى عشر ألفاً واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى ميمنته مسعود بن مالك ، وعلى ميسرته عمرو بن مالك ، واجعل على الساقة عمرو بن مرة الجهنى » .

ولم يقتصر توجيه عمر على سعد وحده وإنما امتد إلى كل قادته ، فهو مثلا قد كتب إلى الحارث بن يزيد العامرى فى شأن أهل هيت . . « إن استجابوا فخل عنهم فليخرجوا ، وإلا فخندق على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك حتى أرى من رأى » .

وهو مثلا قد كتب إلى عتبة بن غزوان « أنى قد استعملتك

على أرض الهند وهى حرمة من حرمة العدو . . . أدع إلى الله فمن أجابك فأقبل منه ومن أبى فالجزية وإلا فالسيف » .

وهو مثلا قد كتب إلى أبى موسى الأشعرى » سر بأهل البصرة إلى ماه والأمير النعمان بن مقرن » .

إن الخليفة عمر كان يرسم لقادته خطة العمل وكان القادة على مختلف مستوياتهم ينفذون أمر عمر ويعملون فى حدوده خطته ويلتزمون بالخط الذى رسمه لهم .

وعندما لم يلتزم المسلمون بخطة الإسلام الكبرى ، ولم تستمر حياتهم فى ظل تعاليمه واختلفت بهم الطرق والأهداف الغايات انقسموا على أنفسهم وقامت بينهم الخلافات والفتن وظهرت الطوائف والشيع واشتدت بينهم الحروب ونالهم الشىء الكثير ، وضعف أمر الاسلام وهان شأن المسلمين ، وتجرأت دول على الدول الاسلامية ، وما كانت لتتجرأ لولا ما وجدتها عليه من الفوضى والتنازع والإنقسام . . .

يأتى بعد ذلك دور الحديث عن الخطة ذاتها .

ونحن هنا فى مجال الحديث عنها نقدم مجموعة من الخطط العسكرية الإسلامية ويستطيع القارئ الكريم بعد أن يطلع عليها ، وبعد أن أطلع على الدراسة التى تمت فى الصفحات السابقة عن الخطة — يستطيع أن يقف على العبقرية العسكرية لدى القادة العرب ، وعلى المهارة الحربية فى وضع خطط سليمة صحيحة تناسب الموقف وتتفق مع الظروف .

فى بدر كانت خطة المسلمين أن يقتربوا قدر الإمكان من ماء بدر — حسب ما أشار به الحباب بن المنذر — فيستغل المسلمون الماء لصالحهم ولخدمتهم ويمنعون فى ذات الوقت عدوهم من استخدامه ، فإذا خرج واحد من قريش إلى الماء تعرض له أحد المسلمين فيمنعه ويقاتله ويصرعه .

وكان العامل الرئيسى الذى يتحكم فى هذه الخطة هو الماء ، فالمعركة تدور فى أرض صحراوية لا ماء فيها إلا فى مناطق محدودة ، والماء فى مثل هذه الظروف هام وضرورى ، يغتسل به المقاتل ويشرب منه ويسقى خيله وأبله ، وهى أسلحة القتال التى يرتكن فى نقله وفى قتاله ، ومنع الماء عن العدو يسبب له مشاكل كثيرة ومتاعب متعددة تربكه وتخلق عنده اضطرابا نفسيا .

وفى أحد كان وضع الرماة جزءا من الخطة ، فقد قامت الخطة أساسا على الاستفادة من طبيعة الأرض ، فالجبل وهو جزء من أرض المعركة يشكل مانعا للمسلمين يمنعهم من عدوهم فلا يستطيع أن يهاجم من الخلف وهو فوق ذلك مرتفع يشرف على أرض المعركة ومن يسيطر عليه يتحكم فى هذه الأرض ويستطيع أن يستخدم سلاحه — وهو لدى المسلمين النبل والرمح — بحرية وقدرة وفاعلية .

وفى غزوة الفتح وضع الرسول خطة المعركة على أساسين هما دخول مكة من جميع الجهات ودخولها دون قتال ، ولهذا قسم الرسول الجيش إلى أربعة أجنحة ، وحدد لكل جناح واجبه ، فجعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر وأمره أن يدخل مكة من شمالها ، وخالد بن الوليد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخلها من غربها ، وأبا عبيدة بن الجراح على المهاجرين ويدخلها فى حذاء جبل هند . . وبذلك تحقق الأساس الأول من الخطة ، وأما الأساس الثانى فقد تم بعزل سعد بن عبادة وتعيين ابنه قيس كما أشرنا فى صفحة سابقة وتمت الخطة فعلا كما أرادها الرسول اللهم إلا فى جبهة خالد بن الوليد فقد تعرض له عدد

من قريش على رأسهم سهيل وصفوان وعكرمة ودار قتال قصير فر بعده الثلاثة .

وقامت بعض خطط المسلمين على أساس تطويق العدو . . . فكثير من أعداء المسلمين كاليهود مثلا وكثقيف ، وكانوا يسكنون مناطق محصنة يصعب دخولها حين يتحصن أهلها بها ، فكان الرسول يأمر بحصارهم حتى يضطروا إلى التسليم أو يفتح الله على المسلمين الحصن .

وأصبح الحصار وسيلة من وسائل قهر العدو ، وأصبحت خطط كثيرة للمسلمين تقوم على فكرة الحصار ، كما حدث فى خيبر بعد أحد ، وفى قريظة بعد الخندق ، وكما حدث فى الطائف فى بابليون ، وطرابلس ، ودمشق ، وفى مناطق أخرى كثيرة ، نذكر منها هنا بالتفصيل حصار الطائف فى عهد رسول الله وحصار دمشق فى عهد ابن الخطاب .

كانت الطائف مدينة محصنة لها أبواب تغلق عليها ، وكان أهلها ذوى دراية بحرب الحصار ، وذوى ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون . . كان يسكنها بنو ثقيف وهؤلاء

كان رسول الله قد اتجه إليهم قبل الهجرة يلتمس عندهم الأمان والعون فسخروا منه وسلطوا عليه صبيانهم فآذوه ، فاتجه صلى الله عليه وسلم إلى ربه يناجيه قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين . . . الخ .

حدث قبل ان يسير الرسول إلى الطائف أن وقع اصطدام بين المسلمين وبين مالك بن عوف فى حنين فلما انهزم مالك وقومه فر إلى الطائف يحتمى بها ، فأمر الرسول بمحاصرة ثقيف داخلها لأنه لم يكن من السهل على المسلمين أن يقتحموا حصونها وهى منيعة قوية ، وقال أحد الأعراب للرسول « إنما ثقيف فى حصنها كالثعلب فى جحره لا سبيل إلى إخراجه إلا بطول المكث ، فإن تركته لم يلحقك منه أذى » .

واستعان الرسول بقوم من بنى دوس لهم علم بالرماية بالمنجنيق ومهاجمة الحصون ، فرمى المسلمون الطائف بالمنجنيق ، واستخدموا الدبابات فزحفوا بها إلى جدارها ، ولكن أهل الطائف قاموا وصدوا هجمات المسلمين ، فقرر الرسول أن يقطع ويحرق كروم الطائف ، فلما أيقنوا أنه عليه السلام جاد بعثوا إليه يفاوضونه .

وكانت دمشق مدينة ذات أسوار منيعة ، وكانت مثلا في قوة التحصن والمنعة ، بنيت من حجارة ضخمة متينة ، وعلت أبنيتها إلى ارتفاع يزيد على ستة أمتار في سمك يزيد على ثلاثة ، وكانت حصونها رفيعة الذرى كثيرة الشرفات ، يحتمى بها الرماة بالسهام والمجانيق من المدافعين فيها ، وزادها هرقل تحصينا ، وكان بالأسوار أبواب منيعة يحكم أغلاقها فلا تدع سبيلا لداخل إليها أو خارج منها ، وأعطيت الأسوار بخندق يزيد عرضه على ثلاثة أمتار حمته مياه نهر بردى .

هكذا كانت دمشق كما وجدها المسلمون المتقدمون إليها تحت امرأة أبي عبيدة قلعة ذات أبراج ، وفكر أبو عبيدة في الخطة اللازمة إزاء هذه المدينة الحصينة القوية ، وتذكر ما فعله رسول الله في الطائف ، فقرر أن تكون خطته الحصار مع منع أي قوات معاونة من الوصول إليها خوفا من أن تقع قوات المسلمين بينها وبين قوات دمشق .

وقضت خطة الحصار بأن يخصص لكل قائد على رأس جماعة من المسلمين باب من أبواب الحصن يرقبه ويهاجمه إذا سنحت له

فرصة الهجوم ، فكان أبو عبيدة على باب الجابية وعمرو على توما ، وشرحبيل على باب الفراديس ، وزيد بن سفيان على كيسان ، وخالد على الباب الشرقى ، ونصب المسلمون المجانيق حول المدينة . .

ومن أجل تنفيذ الشطر الثانى من الخطة تحركت قوة بقيادة ذى الكلاع الحميرى إلى منطقة بين دمشق وحمص ، وقوة أخرى بقيادة علقمة بن حكيم ومسروق العبسى بين دمشق وفلسطين ، لمنع أية قوات العادية من التقدم إلى دمشق أو من فلسطين . . . وطال حصار المدينة وضيق المسلمون الحصار ، وعلم خالد عن طريق عيونه التى انتشرت فى قطاعه ، أن بطريق المدينة ولد له ولد ، وأنه أولم للناس فأكل الجند وشربوا وتراخوا فى البقاء بأماكنهم ، وغفلوا عن مواقعهم ، فأعد حبالا على هيئة سلالم وجمع جنده وقال لهم : « إذا سمعتم تكبيرنا من السور فارقوا إلينا » .

وتقدم ومعه القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى وعبروا الخندق ثم اثبتوا أوهاق حبالهم فى الأسوار وتسلقوها ، ثم ثبتوا الحبال فى الشرف التى تلى داخل المدينة وألقوها ، وانحدر خالد ومن معه ونزلوا إلى الباب وقتلوا حراسه ، ثم فتحوه على مصراعيه ، وكبر خالد

فشمع رجاله التكبير فعبروا الماء مسرعين وتسلقوا الجبال ، واندفع بعضهم من باب الحصن فنشروا الرعب والفزع ، واقتحمت القوات الأخرى الأبواب أمامها فاستسلمت المدينة .

ومع بداية عهد أبى بكر قامت الفتنة فى الجزيرة العربية وكان لا بد من مواجهتها والضرب على أيدى القائمين بها ، وإعادة الأمور إلى نصابها ، وأحس الناس جميعاً بالمسئولية التى ألقتها المقادير على أعناقهم بعد وفاة الرسول ، فتجمعوا وراء أبى بكر لمواجهة العاصفة الخطيرة التى هبت على قلادة العرب وكادت أن تقتلع دين الله الذى ارتضاه لخلقه ، واستقر الرأى على قتال مدعى النبوة طليحة بن خويلد ومالك بن نويرة ومسيلمة الحنفى ، ومانعى الزكاة من عبس وذبيان وبنى كنانة وغطفان وفزارة .

وعالج أبو بكر الموقف على خطوتين .. فبدأ هو بقتال مانعى الزكاة وهزمهم فى ذى القصة ثم اتجه بفكره إلى المرتدين فقسم الجيش الإسلامى إلى ألوية وجعل على كل لواء قائداً وحدد له مهمته ورسم لجميع الألوية خطة التعاون الكامل فيما بينها ، فكلف خالد قائد اللواء الأول بمحاربة طليحة ثم مالك ، وتولى عكرمة قيادة اللواء الثانى لمقاتلة مسيلمة ، وتولى شرحبيل قيادة اللواء الثالث وكان عليه

أن يعاون عكرمة ثم يعاون اللواءان معاً بعد إنتهاء مهمتهما اللواء التاسع الذى يقوده عمرو بن العاص الذى يقاتل قضاعة ، وتولى المهاجرين أمية اللواء الرابع وكلف بقتال الأسود العبسى ثم عمرو ابن معديكرب ثم قيس بن مكشوح ثم الأشعثين قيس ، وتولى سويد ابن مقرن قيادة اللواء الخامس وكلف بمحاربة أهل تهامة ، وتولى العلاء بن الحضرمى اللواء السادس ليقاتل الحطم بن ضبيعة ؛ وتولى حذيفة بن محصن اللواء السابع ليواجه به لقيط بن مالك ؛ وكانت وجهة اللواء الثامن الذى يقوده عجرفة بن هرثمة أهل مهرة ، أما بنو سليم فقد كلف اللواء العاشر بقيادة معد بن حاجز السلمى بقتالهم ، كما كلف اللواء الحادى عشر بتأمين مشارف الشام تحت قيادة خالد ابن سعيد بن العباس .

وترك أبو بكر لقادة الألوية حرية التصرف العسكرى فى ضوء الظروف والإعتبارات ، وبذلك أعطى للقادة الصلاحية الكاملة للعمل .

ونقدم فيما يلى ما قام به أحد الألوية لنرى كيف دبر قائده الأمر ووضع خطة لقائه مع أعدائه . وسيكون المثل فى هذا المجال خاصاً بخالد ابن الوليد الذى قاد اللواء الأول ضد طليحة .

نزل طليحة مع قومه على ماء يسمى الغمر ، والتقى الجيشان فى ساحة المعركة وجهاً لوجه ، وأراد عدى بن حاتم أن يجعل قومه فى المقدمة ، ولكن خالداً وهو ذو نظرة صائبة ثاقبة فى سياسة الحرب وإدارة دفة الوقائع وهو العالم بأحوال الرجال وشأن الجند فى حومة الوغى ومنزلة أهل العقائد والإيمان فى الاقدام والحرص على الموت استشهاداً فى سبيل الله ، قرر أن يجعل فى المقدمة المهاجرين والأنصار لأنهم قوم صبر وثبات ولهم سوابق .

وجمع خالد رجاله يشاورهم ويدرس معهم الموقف لينتهى إلى خطة اللقاء . وفوجىء خالد بطليحة يحمل على الناس بكتيبة خاصة فاختل شأن المسلمين واختلطت صفوفهم ، وطلب القوم من خالد أن يتحصن فى ساعة العسرة بالجبال ، ولكنه أبى إلا أن يتحصن بالله تعالى خالق الجبال ، فركب فرسه واندفع فى صفوف العدو يقتحمها حتى وصل إلى حامل الراية فحمل عليه وقتله ، وسقطت منه الراية ، تطؤها الإبل والخيل والرجال ، وانتصر المسلمون وانهزم أعداؤهم ، وانكشف عن طليحة شيطانه ورأى ما حل بأصحابه من بلاء القتل والأسر ، فوثب على فرسه وحمل وراءه امرأته النوار وقال لأصحابه : « من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل » وهرب إلى الشام .

وكان على خالد بعد أن فرغ من طليحة أن يتجه إلى مالك بن نويرة فلما أحس مالك دنو خالد من أرضه ، وسمع بانتصاره أمر من معه بالتفرق فتفرقوا : « يابني يربوع إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح ، وقد نظرت فيه فوجدت أن الأمر يتأتى لهم بغير سياسة وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، وإياكم ومناراة قوم صنع لهم ، فتفرقوا إلى دياركم وادخلوا فى هذا الأمر » .

وألقى على عاتق خالد معاونة المسلمين الذين يقاتلون مسيلمة الكذاب ، ولقد أدار خالد المعركة حتى انتهى بها إلى نهايتها التى أقرت هيبة الإسلام فى جزيرة العرب .

كان مسيلمة رجلا صاحب ذكاء وفيه خبث ومكر واقتدار على الاحتيال ، واستطاع أن يجمع أربعين ألفاً من رجاله بعقرباء فى طرف اليمامة .

ووضع خالد خطته على أساس استخدام الحرب الباردة ثم تحكيم السيف . فبعث زياد بن لبيد بن بياضة الأنصارى وكان صديقاً لمحكم ابن طفيل سيد أهل اليمامة بقصد أن يكسبه إلى جانبه ، فقال لزياد : « لو ألقيت إلى محكم شيئاً تكسره به » فكتب زياد إليه ابياتاً من الشعر جاء فيها :

يا محكم بن طفيل قد أتيح لكم	لله در أبيكم بحبة الوادى
يا محكم بن طفيل أنك نضر	كالشاة أسلمها الراعى لآساد
مافى مسيلمة الكذاب من عوض	من دار قوم وأخوان، وأولاد
فا كنف حنيفة يوما قبل نائحة	تنعى فوارس شاج شجواها باد
لا تأمنوا خالداً بالبرد متجراً	تحت العجاجة مثل الأغصف العادى
ويل اليمامة ويلا لا فراق له	إن جالت الخيل فيها بالقنا الصادى
والله لا تنثنى عنكم أعنتها	حتى تكونوا كأهل الحجر أو عاد

ولكن محكم لم يستجب للدعوة ولم يهتم بها، بل اندفع يحرض على قتال المسلمين قائلا « يا معشر أهل اليمامة ؟ أنكم تلقون قوماً يبذلون أنفسهم دون صاحبهم ، فأبذلوا أنفسكم دون صاحبكم فأن أسداً وغطفان أنما أشار إليهم خالد بذباب السيف فكانوا كالنعام الشاردة » .

ولم ييأس خالد بل اتجه إلى عمير بن صالح اليشكرى وكان قد أسلم وكتم إسلامه على قومه وكان قوى العقيدة راسخ الإيمان ، وقال له « تقدم إلى قومك » ، فأتاهم وقال « أظلكم خالد فى المهاجرين والأنصار ، أنى رأيت قوما أن غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالقصر ، وأن غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد ، ولستم والقوم سواء الإسلام

مقبل والشرك الدبر ، وصاحبهم نبي وصاحبكم كذاب ومعهم السرور ومعكم الغرور ، فالآن والسيف فى غمده والنبل فى جفيره ، قبل أن يسل السيف ويرمى بالسهم سرت إليكم مع القوم عشرا فأكرمهم » .

ثم باشر خالد ذات المهمة مع ثمامة بن أثال الحنفى فمشى إلى قومه يدعوهم إلى الاستسلام ويحطم عندهم روح القتال « أنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد ، إن محمداً ﷺ لا نبي بعده ، لا نبي مرسل معه . . لقد بعث إليكم (يقصد أبا بكر) رجلا لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه يقال له « سيف الله » معه سيوف كثيرة ، فانظروا فى أمركم » .

وكانت خطة اللقاء التى وضعها خالد تقوم على تقسيم المسلمين إلى ميمنة عليها أبو حذيفة عتبة بن ربيعة ، وميسرة عليها شجاع بن وهب ، وجماعة الأنصار وعليهم ثابت بن قيس بن شماس ، وجماعة المهاجرين وعليهم زيد بن الخطاب ، والخيل وعليها البراء بن مالك ، وبدأ القتال وكان شديداً عنيفا وحمى وطيسة وكثر القتلى من الجانبين ، واختلط حابل الناس بنابلهم ، ولم يعرف الكرار من الفرار ، وشن خالد هجمة عنيفة على عدوه وحمل معه المسلمون حملة صادقة حتى أدخلوهم حديقة مسيلمة وهاجمهم المسلمون وفى مقدمتهم البراء بن مالك ،

وأبو دجانة وعباد بن بشر ، وفى الحديقة قتل مسيلمة وكثيرون من رجاله حتى سميت الحديقة من كثرة القتلى « بحديقة الموت » وانفرط عقد الرجال وانحلت عزائمهم ووهنوا أمام المسلمين فتفرقوا .

وفى خلال المعارك الكثيرة التى تمت فى عهد أبى بكر ، كان أبو بكر يطلق يد القادة فى وضع الخطط وإعداد الجيوش ، ولم يتدخل أبو بكر أبداً فى سياسة أحد من قادته ولم يفرض عليه خطة معينة أو رأياً معينا ، وإنما كان ينصح ويقدم العون ويدعو بالتوفيق والنصر .

فعندما رأى أبو بكر أن حدة المواجهة بين قوات المسلمين والروم فى الشام قد طالت وأحس بأن الموقف لا يحتمل التأخير ، أمر خالد بأن ينضم إلى قوات الشام ، وهناك فى اليرموك قدر خالد الموقف ورأى الروم قوة واحدة متضامنة وجبهة صلبة تواجهها جيوش المسلمين الأربعة متفرقة كل أمير يتصرف فى لوائه دون اتصال بالألوية الأخرى فوضع خطة العمل على أسس ثلاث :

أولها : تعاون جميع ألوية المسلمين فى جبهة واحدة .

ثانيها : توحيد القيادة الإسلامية فى شخص واحد يأتمر الجميع بأمره ويخضعون لقراراته .

ثالثها : قيام المسلمون بالهجوم أى أن تكون المبادأة فى يد المسلمين .

ومات أبو بكر وخلفه عمر ، وفى عهده اتسعت رقعة الدولة ، وازدادت الفتوح وكثرت المعارك وظلت خطوات المعارك كما رسمتها القيادة العسكرية الإسلامية . . تقدير للموقف تتبعه خطة مدروسة محكمة .

ومع بداية خلافة عمر عزل خالد من قيادة جيوش الشام وتولاها أبو عبيد بن الجراح ، ومع أول عهده فى قيادة الجيش كان عليه أن يتقدم إلى دمشق . . ووضع عمر خطة التقدم لأنه حدث تغيير كبير فى نظام وضعها ، ففى عهد أبى بكر كان قائد الجيش هو الذى يضع الخطة فى حدود ظروفه وامكانياته ، أما فى عهد عمر فقد كان هو الذى يضع كل الخطط لجيش الشام وجيش العراق وجيش مصر ، وكان يبعث بها إلى القادة فيضعونها موضع التنفيذ .

بعث عمر بالخطة العامة إلى أبى عبيدة وكانت تنص على أن :

تقوم القوات الرئيسية بهجوم رئيسى على بلدة دمشق .

تقوم بعض القوات بهجوم ثانوى بالفرسان على فحل .

فى حالة نجاح الهجومين على المحورين السابقين تتقدم جميع القوات إلى حمص .

وقام أبو عبيدة بوضع خطة الهجوم بالتفصيل وقد تعرضنا لها فى الصفحات السابقة .

ولقد تميزت قيادة سعد بن أبى وقاص بالخطط الحكيمة السليمة التى كان يضعها ، فقد كان يحدد لكل قوة واجبها ، وكان يوزع قواته فى أرض المعركة توزيعا يتفق وخطة القتال بما يحقق الواجب وينفذ الهدف .

ولعل أعظم عمل عسكرى يذكر لسعد فى العراق هو اجتياز المسلمين نهر دجلة فقد كون كتيبة أطلق عليها كتيبة الأهوال وهى تشبه فرق الصاعقة فى جيوش اليوم ، وكانت وظيفتها أن تعبر النهر ثم تعد مكانا آمنا تصل إليه جموع المسلمين ، وهذا ما نسميه فى حروب اليوم بعملية « إقامة رأس جسر » وأعد سعد كتيبة أخرى هى الكتيبة الخرساء وكانت وظيفتها معاونة الكتيبة الأولى . . تولى قيادة كتيبة الأهوال عاصم بن عمر التميمى وتولى الكتيبة الأخرى القعقاع بن عمرو .

وكانت الخطة أن تتقدم كتيبة الأهوال فتجتاز النهر ثم تستولى على منطقة آمنة وتحميها ثم تتقدم من ورائها الكتيبة الخرساء لحمايتها ومعاونتها فإذا ما استقر الأمر على الجانب الآخر من النهر عبرته باقى القوات .

وبدأت كتيبة الأهوال عملها حسب الخطة الموضوعة واندفع رجالها بخيولهم إلى النهر فذعر الفرس وتولتهم الدهشة وأخذوا يصيحون « مجانين . . مجانين . . » وقال بعضهم من فرط دهشته : « إنكم والله ما تقاتلون أنساً بل تقاتلون جناً » وحاول الفرس أن يعطلوا تقدم المسلمين فأمرهم عاصم : « الرماح . . الرماح . . أشرعوها وتوخوا العيون » ، وانهمرت الرماح على خيول الفرس فأصابتها فى عيونها ، وارتدت الخيل ، ولم يستطع فرسانها السيطرة عليها ووصل عاصم برجاله . . ووصل بعده القعقاع ثم امتلأ النهر بالخيل حين بدأت قوة المسلمين فى العبور ، ووصف سلمان العبور فقال : « ذللت لهم والله البحور كما ذللت لهم البر » ، ولم يغرق مسلم واحد خلال عملية العبور . . وعندما استقر الأمر للمسلمين تجهزوا لفتح المدائن ، ويقول ابن كثير : « كان يوما عظيما وأمرا هائلا وخطبا

جليلا وخارقا باهراً ، ومعجزة لرسول الله ﷺ خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها فى تلك البلاد ولا فى بقعة من البقاع » .

ونجح عمرو بن العاص فى قيادته لجيوش المسلمين فى فلسطين وفى مصر ، واحتل مكانة مرموقة بين القادة المسلمين لما كان يتميز به من عقلية عسكرية ناضجة فاهمة واعية .

وكان عمرو يضع خطط لقائه مع العدو على أسس سليمة من المعرفة والإدراك والدراسة مثلا كان عليه أن يلقى أرطبون الروم فى أجنادين فوضع خطة اللقاء على أساس :

مواجهة قوات أرطبون فى ايلياء ، وتولى هذه المهمة علقمة بن حكيم ومسروق العكى .

مواجهة قوات أرطبون فى الرملة ، وتولى هذه المهمة أبو أيوب المالكى .

مهاجمة أرطبون فى أجنادين ، وكان عمرو على رأس هذه القوة .

والجديد فى هذه الخطة أن عمراً أراد أن يشغل قوات أرطبون فى ايلياء والرملة حتى لا تنضم إلى قواته فى أجنادين ، وبذلك يكون قد طبق ما يعرف فى حروب اليوم بمبدأ « اقتصاد القوى »

أو « ادخار القومى » وهو يعنى حشد أعظم قوة ضد الغرض الأساسى مع تخصيص قوات أقل للعمليات الثانوية .

وخطة عمرو فى أم دنين تؤكد عبقريته ونبوغه ، فأم دنين قرية شمال حصن بابليون والاستيلاء عليها يقرب مسافة الجند من بابليون ، وأدرك الروم خطورة الاستيلاء على أم دنين ، فبعثوا بأعداد ضخمة وقوات هائلة إلى حصن بابليون ، وأمدوا حصن أودنين بقوات كثيرة ، وتهيأوا لقتال المسلمين هناك . . وقدر عمرو موقفه وبحث الأمر مع أصحابه وبث العيون هنا وهناك تأتيه بالأخبار ، ثم وضع خطته وكانت :

حصار أم دنين والاستيلاء على السفن الراسية فى مرفئه .

عدم التورط فى قتال غير مضمون النتيجة .

استعجال أمير المؤمنين لارسال المدد .

ونفذت الخطة فحاصر أم دنين ، ومنع عنها الزاد والميرة ، ودار قتال شديد بين المحاصرين والمسلمين ، ووصل خلال الحصار مدد المسلمين فهاجم عمرو الحصن وقتل كثير من الروم وأسر الباقى ، ثم استسلم الحصن واستولى عمرو على السفن الراسية على النيل .

هذه صور للخطط الحربية التى وضعها قادة المسلمين خلال عملياتهم ، ونحن نذكر هذه الصور على سبيل التدليل على صحة ما نذهب إليه ، ولكننا نعجز فى هذا المجال عن أن نقدم كل الخطط ، والذى يهم أن نسلط الأضواء عليه هو أن الخطة الحربية كانت توضع بعد دراسة عميقة وفهم للأوضاع وتقدير للظروف ، وأنه على طول التاريخ الحربى الإسلامى لم توضع خطة بصفة عاجلة أو بطريقة ارتجالية ، مما يؤكد عبقرية المسلمين العسكرية وتميزهم فى هذا الفن وقدرتهم فى ميادين القتال .



الباب الرابع

مبادىء الحرب

لقد تنبهت القيادات العسكرية الاسلامية لمبادىء الحرب قبل ان تعرفها القيادات العسكرية الحديثة ووضعتها موضع التنفيذ فى جميع معاركها بمهارة فائقة تصل الى مستوى التجربة المفيدة والدرس النافع .

للحرب دون شك مبادئ .

وهذه المبادىء هى التى تهيئ للمحاربين طريق النصر .

فالقائد الذى يدرك هذه المبادىء ويتفهمها ويعرفها ويقوم بتنفيذها ويضع خطته فى ضوئها ويلتزم بها فى مرحلتى الاستعداد والقتال يضمن النصر فى المعركة ، اللهم إلا إذا تدخل عامل آخر يغير موازين المعركة إلى غير صالحه .

ومبادىء الحرب كانت وما زالت موضع بحث كثير من العسكريين .

كثيرون منهم يتجهون إلى أن هذه المبادئ هى وسائل تؤدى إلى الغرض من الحرب بمعنى أنها وسائل يمكن استخدامها وتطبيقها بقصد الحصول على نتائج معينة .

واختلف الباحثون فى ماهية هذه المبادئ . . . البعض يذكر مجموعة من المبادئ والبعض الآخر يعدل فى هذه المجموعة بالزيادة أو بالحذف . . فكلا وزفتز مثلا أضاف مبدأ التعاون وأصر على كونه من أهم مبادئ الحرب ، وأهمل فى ذات الوقت المطاردة ، التى أصر هندرسن على إضافتها والتمسك بها . . .

ولقد توصل الباحثون لمختلف الآراء والدارسون[1] لمختلف الاتجاهات إلى تحديد مبادئ الحرب بالحشد وادخار القوى والمباغتة والتعرض وخفة الحركة والسلامة والتعاون والمطاردة .

وكثير من العسكريين من مختلف المدارس العسكرية اهتموا بدراسة مبادئ الحرب ، ويأتي في مقدمتهم فون كلاوزفتز وهندرسن وجوميني وفوللر وفوش والتهام .. . ونابليون الذي قال « إذا وجدت الوقت الكافي لدى فسوف أضع كتابا أذكر فيه مبادئ الحرب بطريقة سهلة بسيطة لتكون تحت متناول أي جندي » .

المهم الذي يثير الانتباه أن موضوع مبادئ الحرب كان موضع الحديث والبحث والدراسة والمناقشة خلال فترة قريبة لا يمكن أبدا أن تمتد إلى العصر الإسلامي .

والمهم أيضا الذي يثير الانتباه أن مبادئ الحرب وجدت في ظل القيادة العسكرية الإسلامية وطبقت بمهارة نائقة تعلوا إلى مستوى التجربة المفيدة والدرس النافع لكل العسكريين الذين جاءوا بعد ذلك ونسبوا إلى أنفسهم شرف اكتشاف هذه المبادئ والإعلان عنها . .

ومع الأسف الشديد فإن المؤرخين الذين كتبوا لنا فى الماضى تاريخ الحروب الاسلامية كتبوه كأحداث ، لم يكتبوه كدراسة ولم ينظروا إليه كفن . . . ولو كانوا قد فعلوا ذلك لمنحوا الكتاب الذين تخصصوا فى الدراسات العسكرية نبعا لا يجف وفكرا لا يخبو .

ونحن على الصفحات التالية نوضح بالأدلة الساطعة التى لا تحتمل قولين مدى وكيفية تطبيق مبادىء الحرب كلها مجتمعة فى الحروب الإسلامية .

ولكننا نود أولا أن نوضح أن تطبيق هذه المبادىء فى الحروب الإسلامية تم بمعرفة قادة نشأوا فى البادية . . . لم ينتظموا فى أكاديميات عسكرية تلقوا فيها مبادىء الحرب ولكنهم توصلوا إليها بفكر ناضج وإحساس صادق وتفهم كامل وإدراك واع وقدرة فائقة .

ونود ثانيا أن نوضح أن هذه المبادىء التى نحن بصدد الحديث عنها لم تتوصل إليها كل القيادات العسكرية ، فكل منها ذهبت مذهبا وتمسكت ببعض منها دون الآخر .

فكلا وزفتز حدد هذه المبادىء فى أربع فقط : هى التعرض والحشد وخفة الحشد وخفة الحركة والمباغتة .

وهندرسن جعلها اثنين : المفاجأة والمطاردة .

وجوميني جعلها خمسا : هى حرية الحركة وخفة الحركة وحشد القوى والتعرض والمباغتة .

وفوش جعلها أربعا : هى ادخار القوى وحرية العمل وتوزيع القوات والسلامة .

وفوللير كان أكثرهم جمعا لهذه المبادىء إذ جعلها الحشد وادخار القوى والمباغتة وخفة الحركة والتعرض والسلامة .

أما الإسلام فقد جمع كل هذه المبادىء فى حروبه وطبقها فى معاركه ونفذها بجدارة وقدرة مما يعد نقطة إشراق فى تاريخ العسكرية الإسلامية .

وبذلك تكون القيادة العسكرية الإسلامية أكثر القيادات وأقدمها تحديدا لمبادىء الحرب وإدراكا لأهميتها وتطبيقا لها فى كل حروبها منذ أذن للمسلمين بالقتال.

ونحن لانريد أن ندعى كذبا أن الإسلام هو الذى قرر هذه

المبادىء أو أوجدها فإن حروبا كثيرة قامت قبل الإسلام على بعض هذه المبادىء — وليس عليها كلها — طبقا لظروف الوقت والحالة كما حدث مثلا فى حروب الاسكندر وهانيبال ورمسيس .

ولكننا نريد أن نؤكد فى الصفحات التالية وأن نوضح للقارىء ما يثبت أن القيادة العسكرية الاسلامية قد سبقت غيرها إلى تحقيق مبادئ الحرب وكانت المثل الأعلى فى توخى الحق والخير والقوة ومكارم الأخلاق .

ونود أن نشير إلى أننا لا نستطيع أن نقدم أمثلة كثيرة من التاريخ العسكرى الاسلامى كدليل على مانذهب إليه فى العرض التالى لمبادئ الحرب لأن ذلك يتطلب كتابا مستقلا ولهذا رأينا أن نقدم مثلا أو أكثر على سبيل المثال .

١ — الحشد . . .

وهو يعنى جمع أكبر قوة ممكنة فى مواجهة العدو . . .

ولقد طبق هذا المبدأ بصورة واضحة فى حروب نابليون وفى المراحل الأولى من الحرب العالمية الثانية حين غزت ألمانيا النازية بولندا وفرنسا ومنطقة غرب أوروبا .

وإذا عدنا بالذاكرة إلى حروب الإسلام فإننا نجد أن هذا المبدأ لم يطبق أصلا فى غزوة بدر، وذلك لأن المسلمين لم يكن فى نيتهم قتال ولأنهم اضطروا إليه اضطرارا فقد كان همهم الأول هو الاستيلاء على قافلة أبى سفيان وهى — كما سبق القول فى موضع متقدم — كانت فى حراسة ضعيفة لا ترقى إلى مستوى القتال، وكان الرسول الكريم قد خشى أن تفلت القافلة فى عودتها كما أفلتت فى ذهابها فيضيع على المسلمين بعض التعويض الذى كانوا يأملونه عن أموالهم وبيوتهم التى فقدوها عند هجرتهم إلى المدينة، ومن هنا جاءت دعوة الرسول الكريم « لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضرا » حتى أن رجالا كانت ظهورهم فى عوالى المدينة فطلبوا منه عليه السلام أن ينتظر حتى يرافقوه فأبى لأنه لم يكن عازما على لقاء متأهبا لقتال.

وبعد أحد بذلت جهود كبيرة لضمان توافر عدد من المقاتلين يتناسب إلى حد ما مع قوة العدو.. ولقد كان التفوق العددى فى جميع غزوات الرسول فى جانب أعدائه ولكن كان التفوق المعنوى يعوض المسلمين عن هذا النقص حتى أنهم انتصروا فى معاركهم كلها، اللهم إلا غزوة أحد التى ترجع الهزيمة فيها إلى عامل آخر هو مخالفة فئة من المسلمين لأوامر الرسول حين تركوا مواقعهم دون إذن

فكشفوا المسلمين من خلفهم واستغل خالد ذلك فكان نصر قريش وهزيمة المسلمين .

وإن هذا لا يعنى أن القيادة الإسلامية فى عهد الرسول أهملت مبدأ الحشد ولكنها كانت تنفذه وتحرص عليه فى حدود إمكانيات المسلمين وقدراتهم ، فلا يخفى أن الإسلام كان فى بدايته وأن المسلمين كانوا يتزايدون ببطء ، وأن كل مسلم صحيح البدن والإسلام كان ينخرط فى سلك الجيش وأن المسلمين كانوا يرفضون انضمام غير المسلم إلى صفوفهم ، كما كانوا يمنعون من الاشتراك فى القتال صغير السن وضعيف الإيمان .

ومع هذا فقد بلغ الجيش الإسلامى فى آخر غزوة قام بها رسول الله عليه السلام وأعنى بها غزوة تبوك التى كانت فى العام الهجرى أكثر من ثلاثين ألفا معهم عشرة آلاف من الخيل وهو عدد ضخم بالنسبة للكم الذى كان عليه المسلمون خلال فترة تجاوزت العشرين عاما بقليل .

ولقد بدأ مبدأ الحشد ينال اهتماما بالغا من القيادات التى خلفت رسول الله عليه السلام ، فأبو بكر الصديق حين أراد أن يحارب المرتدين ومانعى الزكاة حشد لهم أحد عشر لواء ، وحين أحس أن ألويته التى

أرسلها لمحاربة الروم فى اليرموك لا تتناسب كما مع عدد أعدائهم سير إليهم خالد بن الوليد من العراق دعما وقوة .

وكان ذلك شأن عمر حين ألقيت على عاتقه مسئولية صيانة الدولة بعد أبى بكر ، فقد حرص على أن يمد جيوش المسلمين فى العراق بالإمدادات المستمرة ، كما أمد عمرو بن العاص فى مصر بقوات عاونت كثيرا فى تسهيل مهمته .

ولقد بلغ حرص عمر درجة كبيرة حتى أنه كان يولى الأمر عنايته الخاصة ، كان يتولى بنفسه إعداد الامدادات ، وحث الناس ، والإشراف على تجهيزها وتحركها ... لقد وقف فى المسجد يخاطب الناس فى أمر الخروج إلى العراق فقال لهم « أيها الناس ، إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها » .

وكان عمر يغرى بعض الناس بالخروج ايمانا منه بمبدأ الحشد حتى أنه عرض على بنى بجيلة الربع من خمس ما يفىء الله على المسلمين إضافة إلى نصيبهم من الفىء . . حدث داود بن أبى هند قال « أخبرنى

الشعبي أن عمر وجه جرير بن عبدالله إلى الكوفة بعد قتل أبي عبيد — أول من وجه — وقال « هل لك فى العراق وأنفلك الثلث بعد الخمس ؟ »

ولعمر خطوتان جديرتان بالذكر فى هذا المجال . . .

أولا هما أنه سمح للمثنى بن حارثة خلال قتاله فى العراق أن يضم إلى قواته بعضا من نصارى العرب المقيمين هناك كنصارى تغلب ونصارى بنى النمر الذين قاتلوا بجانب المسلمين فى شجاعة نادرة واستبسال مجيد حتى أن مهران الهمذانى قائد الفرس لقى مصرعه على يد واحد من نصارى تغلب .

وثانيهما أنه رضى الله عنه سمح للمسلمين الذين كان تيار الردة قد جرفهم ثم عادوا ثانية بالمشاركة فى القتال أملا فى أن يزيد حجم الحشد الإسلامى فى مواجهة عدو له تفوق بشرى كبير وكان أبو بكر من قبله قد رفض بإصرار السماح لهم بالمشاركة فى القتال ، ولكنه رأى أن يكسب بهم قوة وأن يمنحهم شرف القتال وأن يعطيهم فرصة التكفير عن خطأ وقعوا فيه . . .

الذى أريد أن أنتهى إليه هو أن المسلمين اهتموا بالحشد اهتماما يتفق مع إمكانياتهم وقدراتهم ، وأنهم حرصوا على أن يكون الحشد

متناسبا مع حجم العدو وحجم المعركة ، ولكنهم مع هذا الاهتمام والحرص كانوا يخوضون المعركة معتمدين أساسا على معنوياتهم بغض النظر عن حجم عدوهم وكثافة جنده وكثرة عدده ، فى ضوء قوله تبارك وتعالى : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا . . »

لقد حشدت القيادات الإسلامية حشودا ضخمة لمواجهة الغارات المتعددة التى تعرضت لها البلاد الإسلامية والأماكن المقدسة واستطاعت هذه الحشود أن توقف تيار المغول والتتار فى عين جالوت وأن تقهر الصليبيين فى حطين .

٢ — إدخار القوى :

إن أهم العوامل التى تسيطر على القائد خلال المعركة — على حد قول كلاوزفتز — هو حشد مجموع قواته على ألا ينفصل منها سوى ما تتطلبه الحاجة القصوى .

ولقد عرفت القيادة العسكرية الفرنسية التى يجىء نابليون على رأسها ادخار القوى بأنه حشد أعظم قوة تجاه الغرض الأساسى مع تخصيص القوات الأقل للعمليات الثانوية

وهذا يعنى حشد كل القوى بازاء الغرض الرئيسى الذى تكون فيه هزيمة العدو مع تجنب استبعاد أية قوات تكون لازمة !

فالقائد قد يجد نفسه مضطراً إلى توجيه قوة من جيشه المحتشد تحت قيادته إلى غرض يهدف به إلى شغل قوة من العدو مجتمعة فى مكان بعيد أو قريب من المعركة ومنعها من المشاركة فيها . أو يهدف به إلى توجيه نظر العدو إلى حيث لا يكون الهجوم الرئيسى أو الضربة القاصمة ! أو يهدف به إلى أن تكون هذه القوة المنفصلة قوة وقائية تستر القوات الرئيسية وتحميها وتؤيدها فى اللحظة الحاسمة

هذا المبدأ تمليه ظروف العدو وخطته وطبيعة المعركة !

وهذا المبدأ كان له نصيب كبير فى تاريخ القيادة العسكرية الإسلامية، ففى أحد جعل الرسول جماعة من المسلمين على رأسها الزبير ابن العوام وقال له « استقبل خالد بن الوليد وكن بإزائه » وكلف الرسول جماعة أخرى من الرماة عليهم عبد الله بن جبير بن النعمان بأن يقيموا على جبل يحمى ظهر قواته حتى لا يهاجم العدو المسلمين من الخلف وأصدر لهم أمراً جازما « واحموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئوا من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم

بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل » . مما لا شك فيه أن عزل هذه القوة عن الجيش لن تؤثر فيه بقدر ما تفيده وهذا ما تفعله جيوش اليوم .

وفى خلال الهجوم على دمشق وضع أبو عبيدة بن الجراح خطته على أساس أن يكون هناك هجوم عام شامل تقوم به قواته مباشرة على دمشق ، ولكنه فى ذات الوقت كان يدرك أن للعدو قوات فى فحل ، وخشى أن تبادر هذه القوات إلى مشاركة قوة دمشق فى القتال ومعاونتها وكان عليه حتى يتم له فتح دمشق أن يمنع تقدم قوات فحل ، ولهذا أمر بعض رجاله بقيادة أبى الأعور السلمى بمواجهة قوات الروم فى فحل ومنعها من مغادرة مواقعها ، وظلت هذه القوة تؤدى واجبها بكفاءة وأمانة حتى تم دخول دمشق وسقوطها فى أيدى المسلمين .

وحتى خلال حصار دمشق أمر أبو عبيدة قوة بقيادة ذى الكلاع الحميرى بالمناورة فى المنطقة ما بين دمشق وحمص ، وقوة أخرى يقودها علقمة بن حكيم ومسروق العبسى بالمناورة فى المنطقة ما بين دمشق وفلسطين ، خوفا من أن يحرك هرقل بعض قواته من هذه

المناطق للمعاونة فى دفع العرب وصدهم عن دمشق .. ولما انتهت مهمة الجيش الرئيسى بدخوله دمشق تحركت القوة الإسلامية كلها مجتمعة بعد ذلك بقيادة أبى عبيدة يعاونه خالد بن الوليد إلى فحل وحمص فاحتلها .

وحين صدرت الأوامر إلى عمرو بن العاص باحتلال أجنادين لاحظ — وهو رجل حرب له خبرته وكفاءته وقدرته وفنه — أن أرطبون قد وضع قوات له فى إيلياء وفى الرملة ، وكانت هذه القوات تمثل شوكة فى جانب جيشه وكان لا بد له من أن يتصرف فى حدود القوة التى يقودها ليحقق الهدف الذى رسم له . لذلك فصل قوتين صغيرتين عن جيشه تولى قيادة الأولى علقمة بن حكيم والثانية أبو أيوب المالكى . وكلف الأول بمواجهة قوة إيلياء والثانى بمواجهة قوة الرملة ، وأمرها بمنع أى تحرك لهما بقصد معاونة قوة أجنادين ولو كلفهما ذلك اشتباكا مسلحاً معهما ، وبذلك تفرغت القوة الرئيسية من جيشه — وهى تمثل الجانب الأقوى والأكبر — للعملية الرئيسية فى أجنادين ونجحت فى مهمتها وهزمت أرطبون وهلل للنصر عمر ابن الخطاب فقال « غلبه عمرو ، لله عمرو » .

وفصل عمرو كتيبتين من قوته فى موقعة هليوبوليس وجعل لهما هدفا هو مهاجمة جيش الروم . . وتقدم هو بالقوة الأساسية لمواجهة الروم فى الموضع الذى يسمى اليوم العباسية فلما اشتد القتال وحمى وطيسه وعلا غبار المعركة خرجت القوتان من أماكنهما وشاركتا فى القتال فانهزم وتحقق النصر للمسلمين .

وحين كان المثنى بن حارثة يطارد أعداءه فى اتجاه المدائن فصل قسما من قوته ولاه أخاه المعنى وأمره بأن يحتل حصن المرأة بينما استمر الجيش الرئيسى فى مهمته ونجح المعنى فى مهمته ففض الحصن على من فيه وأسلمت أميرة الحصن وهى فارسية الأصل .

وفى خلال معارك بلاد الفرس بين أهلها وبين المسلمين ، أمر عمر ابن الخطاب سعد بن أبى وقاص قائد قواته ، أن يبعث بأجزاء من قواته إلى أهداف ثانوية لا تعطل الهدف الكبير الملقى على عاتقه ، وحققت هذه القوى أغراضها ، وكان لها فضل كبير فى تعبيد الطريق أمام القوة الرئيسية للجيش الإسلامى . . . فمثلا تحرك عبد الله بن المعتم بقوة إلى تكريت وربعى بن الأفكل إلى الحصنين ، وعمرو بن مالك إلى هيت ، وضرار بن الخطاب إلى ماسبذان وهاشم بن عتبة إلى جلولاء وجرير بن عبد الله البجلى إلى قرميسين .

ولاشك فى أن هذه العمليات الثانوية مهدت الطريق أمام المسلمين وأكسبتهم فوق الأرض روحا وقوة ، فأصبحوا معدين معنويا وماديا للمعركة الكبرى التى سميت باسم « فتح الفتوح » والتى أدت إلى قيام الدولة الإسلامية على أنقاض الدولة الساسانية .

٣ — المباغتة ...

وتسمى فى حروب اليوم المفاجأة .

وهى تعنى الظهور أمام العدو فى وقت لا يقدره وبصورة لا يتوقعها وبأسلوب يجهله .. وهى بهذه الصورة تؤدى إلى ارتباك خطير فى صفوف العدو فوق أنها تثير الرعب بين جنوده فيفقدون اتزانهم وتهتز أعصابهم بصورة تجعلهم غير قادرين على المواجهة والقتال وهنا تحل بهم الهزيمة ..

والقائد الذكى الماهر هو الذى يجتهد فى أن يضع خصمه فى الموضع الذى يصبح فيه مسلوب الإرادة مقيد التفكير لا حول له ولا قوة ، ضعيفا لا يملك القدرة على المقاومة والتحمل ، ويكون همه الأول هو وقاية نفسه .

والمباغتة قد تكون عددية أى أن يواجه العدو بقوات كبيرة العدد لم تكن فى حسبانه وقد تكون فى وقت لا يتوقعه العدو ، وقد تكون

فى جبهة لا يقدر العدو أهميتها فتكون هى متبرئة ، وقد تكون باستخدام أسلحة جديدة يجهلها العدو .

وقد تجمع المباغتة هذه العناصر كلها كما حدث خلال الحرب العالمية الأولى حين داهمت قوات ألمانيا أراضى بلجيكا وشمال شرق فرنسا بأعداد ضخمة دون أن تكون لدى رئاسة الجيش الفرنسى أية معلومات عن قوة العدو ونياته وموعد هجومه .

وتتم المباغتة إذا تحققت لها سهولة الحركة وسريتها وسرعتها .

والمباغتة كان لها دور كبير فى الحروب الإسلامية .

من أول مظاهرها روح القتال التى اتصف بها الجند المسلمون الذين قاتلوا فى بدر .. لقد توهمت قريش أن ظهور رجالها أمام رجال محمد — وقد كانوا فى مكة عبيدا لهم قبل إسلامهم ثم عانوا العذاب المرير على إسلامهم — سيملأ قلوبهم رعبا وخوفا ، فلا يستطيعون نزالا أو يقدرون على قتال . . . ولكن حين تم اللقاء فوجئت قريش بقوم يحاربونهم بكل ما لديهم من قوة وبكل ما استطاعوا من عنف ، حتى كان انتصار المسلمين فى بدر معجزة فريدة فى تاريخ الحروب كلها . . . وكانت هذه المفاجأة ذات وقع أليم على قريش ففقد رجالها — وهم رجال لهم قدرهم ومكانتهم — رشدهم حتى أن الواحد

منهم كان لا يعي لنفسه أمرا ولا يرى لنفسه مخرجا ولا يجد طريقا للنجاة .. وهوت رؤوس أشرافها وكبرائها أئمة الكفر من أمثال أمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام .

وامتد أثر هذه المباغتة إلى داخل مكة حيث كان يقبع أبو لهب الذي لم يشترك في القتال فلما سمع بما حدث أصابته الحمى من كثرة الكمد والهم فمات ولم يكن قد جف على قتلى بدر تراب القليب .
وكانت الصورة الأخرى للمباغتة في الخندق ، فقد اجتمعت الأحزاب (قريش وحلفاؤها من بني سليم وبني أسد وغطفان ومرة وأشجع وغيرهم من قبائل العرب) لتحارب محمدا وتستأصل دينه وكلهم أمل ورجاء .. فكيف لمحمد أن يواجه هذه الآلاف العشرة التي جمعت بينها الرغبة في القضاء عليه .. تحركت القوة تحت قيادة أبي سفيان إلى المدينة وهناك كانت المفاجأة ، أقام المسلمون نوعا جديدا من الدفاع كانت قريش وحلفاؤها يجهلونه .. كان هناك الخندق الذي أشار بحفره سلمان الفارسي الذي قال فيه رسول الله « سلمان منا أهل البيت » ..

وأخذت قريش تفكر في هذه الوسيلة التي لجأ إليها المسلمون . . كيف يجتازون الخندق ؟ كيف يصلون إلى المسلمين ؟؟ .. كيف يحققون هدفهم ؟؟ .. وضاعت الإجابة على هذه الأسئلة مع الرياح الشديدة

التى ثارت ، والعواصف الرملية التى اجتاحت المنطقة ، فكفأت القدور ، وطرحت الأبنية وقلعت الخيام ، وأطفأت النيران ، وملأت العيون وأظلمت الدنيا ، حتى أن حذيفة بن اليمان قال « ما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها ، تطن فى رياحها أصوات أمثال الصواعق ، وما يستطيع أحدنا أن يرى أصبعه من قتامها السائد » ، ولم يجد أبو سفيان حلا إلا التراجع والهروب فوقف يخاطب قومه قائلا « والله إنكم لستم بدار مقام ، وقد هلك الكراع والخف . . . ولقينا من هذه الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل » .

وكانت المباغتة فى أعظم صورها يوم الفتح العظيم ، حين علمت قريش أن الرسول يسير إليها فى جيش كثيف العدة ، أنطق أبا سفيان فقال لقومه « هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به » .

وكان من أثر هذه المباغتة أن دخل المسلمون مكة دون قتال ، اللهم إلا قتال بسيط فى جبهة خالد .

وهذا يعنى أن قريشا لم تحارب ، فقد أفقدتها المباغتة كل قدرة على المواجهة فاستسلمت ووقفت فى خضوع لم تعوده ، تنتظر حكم محمد فيها ، ولسان حالهم يخاطبه فى انكسار « أخ كريم وابن أخ كريم » .

قلنا إن المباغتة تعتمد على الحركة . . سهولة وسرية وسرعة . . ولقد كانت هذه الحركة بمقوماتها الثلاث أساس عمليات فى عهد الرسول، كما حدث فى غزوة بنى المصطلق حيث فوجىء القوم بظهور الرسول أمامهم ففروا ، وفى غزوة خيبر إذ كانت سرعة المسلمين سببا فى الوصول إلى المدينة فى ثلاثة أيام ففوجىء الناس بهم فهربوا وهم يتصايحون « هذا محمد والجيش معه » .

هذه أمثلة من للباغتة فى رسول الله . . .

وأمثلة المباغتة كثيرة فى الحروب الإسلامية فقد كان القادة المسلمون يدركون أهميتها ويعرفون آثارها ولهذا اهتموا بها اهتماماً بالغاً فى غالبية معاركهم فى الشام ومصر وفلسطين وشمال أفريقيا ، والأمثلة كثيرة تمتلىء بها كتب التاريخ !

والذى نود أن نثيره هنا أن المسلمين تعرضوا فى حنين إلى مباغتة كان لها أثر كبير وخطير عليهم، لولا شجاعة الرسول وثباته فبينما هم يتحدرون من مضيق حنين فى واد من أودية تهامة شنت عليهم قبائل هوازن هجوماً مباغتاً ، فاختلط أمرهم واضطرب واختلطت صفوفهم وعمت الفوضى وتراجع الناس وولت القبائل الأدبار، ولكن

الرسول الكريم أدرك الموقف وتنبه لخطورته ، فثبت في مكانه ونادى في الناس « أين أيها الناس ، أين » واندفع ببغلته البيضاء يوقف سيل هوزان الذى يتابع المسلمين الفارين ، وشاهده عمه العباس فنادى في الناس ، « يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، هلموا ، » واستجاب الناس وعادوا إلى المعركة وانتصروا ،

٤ — التعرض :

وهو يعنى الهجوم !

والتعرض كما هو معروف خير وسائل الدفاع ، وهو يؤدى إلى كسب السيطرة ، ويمنح حرية العمل ، ويلزم العدو باتخاذ خطة الدفاع ، ويرفع من روح المقاتلين المعنوية في الوقت الذى يضعف فيه روح الطرف الآخر !

والتعرض لا يعنى في كل حالاته النصر ، ولكن إتقانه والانتفاع بآثاره هو الذى يحقق النصر ، فالهدف الأساسى منه هو كسر شوكة العدو والقضاء على رغبته في مواصلة المقاومة !

والتعرض عمل عقلى ومعنوى ومادى ، فالرغبة في النصر تمثل

القوة الثابتة والقدرة على التنفيذ هى العمل الحاسم ، وبدون هذه المقومات الثلاث لا ينجح التعرض ولا يؤتى ثماره !

والتعرض يقوم أساساً على استخدام كل ما يمكن إعداده من سلاح وقوة بشرية ، وهو يتوقف على خفة الحركة وقوة العزيمة وإمكانية التحمل !

ولم تغب أهميـة التعرض وخطورته على القيادة العسكرية الإسلامية !

ففى عهد الرسول كان المسلمون فى غالبية غزواتهم هم المهاجمين فى بدر ، وفى أحد ، وفى مؤتة ، وفى الفتح ، وحنين ، والطائف ، وتبوك !

وفى عهد أبى بكر هاجم المسلمون المرتدين ومانعى الزكاة !

وفى عهد عمر انتقلت الجيوش الإسلامية إلى خارج الجزيرة ، وكانت معاركهم كلها فى أرض أعدائهم !

فى الشام حيث تقدموا من موقع إلى آخر ، من اليرموك إلى دمشق إلى فحل إلى حمص !

وفى العراق حيث اجتاحوا الأرض بين عليها فى مواقع متعددة بدأها خالد بن الوليد فى الكواظم ، حيث تحقق أول انتصار على

الفرس ، وأنهاها سعد بن أبي وقاص فى المدائن حيث قضى على دولتهم ورفع راية الإسلام !

وفى مصر وشمال أفريقيا حيث انتصر عمرو بن العاص فى الفرما ثم توالت الانتصارات الإسلامية حتى دخل المسلمون بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد بلاد الأندلس !

وفى آسيا إذ وصلت الجيوش الإسلامية إلى بلاد السند والصين وانتشر فيها الإسلام !

وإذا أردنا هنا أن نقدم أمثلة للتعرض الإسلامى فهذا يعنى أن ننشر تاريخ الحرب فى الإسلام ! وإننا لنرجو ونحن نقول إن الإسلام استخدم مبدأ التعرض (أى الهجوم) ألا يفهم أن الاسلام كان معتديا فالتعرض الاسلامى كان نوعاً من الدفاع عملا بالمبدأ الذى يقول « إن الهجوم هو خير وسائل الدفاع » كان دفاعاً عن الدين والوجود والكيان الاسلامى !

٥ — خفة الحركة . . .

وهى تعنى القدرة على الحركة والمناورة والانتقال . .

وخفة الحركة تستلزم تمرين القوات على الحركة واللياقة والتنظيم وحسن الإعداد .

وكان لخفة الحركة دور كبير فى تاريخ الحروب الإسلامية ، وهذه حقيقة لأن المسلمين فى أصلهم عرب عاشوا فى الصحراء التى كانت تتطلب تحركا دائما هذا فوق أن طبيعة حياتهم كانت تؤهلهم لخفة الحركة وسرعة الانتقال ويسر المناورة .

كان الرسول الكريم إذا سمع بتجمع ضده فى أى مكان يسرع إلى مكانه ليقضى عليه قبل أن يستفحل أمره ، كما حدث فى غزواته عليه السلام ضد بنى لحيان ، وبنى محارب وإلى بواط ، والعشيرة ، وسفوان .

كما كان عليه السلام يسرع بإرسال سراياه إذا أحس بخطر يهدد مواقعه فى مكان ما كما حدث فى سراياه إلى بنى أسد وذى القصه وبنى سليم وبنى كلب وغيرهم .

والإغارات المتعددة التى قام بها المسلمون فى العراق فيما بين سوق الخنافس والأنبار وبادوريا وقطربل وسوق بغداد وتكريت ، ما كانت لتنجح وتؤتى ثمارها إلا لأنها قامت أساسا على خفة الحركة ، واعتمدت عليها اعتمادا بعيد المدى .

ويعد تحرك خالد بن الوليد من العراق إلى اليرموك نموذجا حيا لخفة الحركة ، فقد سار بقواته فى بادية لا ماء فيها ، وأتى الروم من

مأمنهم وفاجأهم بما لم يحتسبوا ، وقطع مسافة تقطعها السيارة في عشرين ساعة مع الاستراحة ويبلغ طولها زهاء ثمانمائة وستين كيلو — في خمسة أيام .

واعتمد عمرو بن العاص حين تعذر عليه فتح حصن بابليون على خفة الحركة في التقدم تجاه الفيوم ، حيث ناوأ كتيبة يقودها حنا ، واستطاع أن يقضي عليها ويقتله . . ولقد أذهل هذا التحرك الروم ، إذ لم يكن يخطر ببالهم أن يتحرك عمرو بهذه السرعة إلى الفيوم ، ثم يعود مرة أخرى بعد أن يكون المدد قد وصل إليه ليعاونه في فتح حصن بابليون .

ويعطي احتلال صبراته مثلا حيا لخفة الحركة . . فعندما انتهى عمرو بن العاص من احتلال طرابلس ، أمر قواته بالتقدم فورا إلى صبراته ، فتحركت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير ليلا ، وأصبح الصبح وهو يدخل المدينة ، وأهلها مشغولون بإخراج حيواناتهم للمرعى ، واحتل عبد الله المدينة دون قتال ، وروى ابن الحكم « كان من بصبراته متحصنين فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس ، وأنه لم يصنع فيهم شيئا ولا طاقة له بهم ، أمنوا فلما ظفر عمرو بمدينة طرابلس جرد خيلا كثيفا من ليلته وأمرهم بسرعة

السير فصبحت خيله مدينة صبراته وقد غفلوا وفتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم فدخلوها ولم ينج أحد واحتوى عمرو على ما فيها » .

٦ — السلامة . . .

من أهم واجبات القائد سلامة قواته وحماية خطوط مواصلاتها واتخاذ الحيطة اللازمة ضد مباغتتها .

ونابليون كان يعنى أول ما يعنى بسلامة قواته ، وكان يعير هذا الأمر اهتمامه الأكبر ، وكذلك فعلت جميع القيادات ، فهي قد وضعت في الاعتبار سلامة القوات .

وذلك كان شأن القيادة العسكرية الإسلامية فقد كانت حماية قواتها وسلامتها فى مكان الصدارة فى تفكير قادتها على مختلف مستوياتهم .

والأصل فى الحرب الاسلامية هو السلامة والحماية . . أعنى سلامة الدعوة وحماية المؤمنين بها الداخلين فى الإسلام ، فبعد سنين طويلة من الصبر على الأذى والعدوان قرر القرآن أن يحمى كل مؤمن اختار الإسلام دينا ، ولهذا فرضت الحرب فى الاسلام حماية له وسلامة لأهله .

وعندما استعدت قريش للهجوم على المدينة فى غزوة أحد بعث العباس عم الرسول بكتاب إليه ينبئه بالتحرك ، فلما تسلم الرسول الكتاب دفع به إلى أبى بن كعب ليقرأه ، فلما عرف ما به طلب منه أن يكتم أمر الكتاب ، ثم تصرف الرسول بسرعة ، فأمر بإعداد حراسة شديدة على المدينة خلال الليل ، وأرسل جماعة استطلاع تكشف له الأمر وتمده بالمعلومات .

وفى خلال الغزوة أرادت كتيبة يقودها ابن أبى أن تسهم فى حرب قريش ، فرفض الرسول قائلا « لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا » ، وكان الرسول بهذا القرار يحرص على سلامة رجاله .

وعندما أرسل الرسول لواء يقوده أبو سلمة بن عبد الأسد لحاربة طليحة وسلمة ابنى خويلد ، أمر بالسير ليلا والاختفاء نهارا ، وأن يسلك اللواء طرقا غير مطروقة .

وفى غزوة ذات الرقاع خشى الرسول أن يهاجمه بنو غطفان فقال لقومه « من يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ فاستجاب لدعوته عمار بن ياسر وعباده بن بشر ، وتناوبا معا الحراسة .

وفكرة الخندق تقوم أساسا على مبدأ السلامة فقد تجمعت قريش وحلفاؤها فى أعداد ضخمة تشكل خطرا على المسلمين، وقد كانت عدتهم حتى هذه المعركة لا تستطيع أن تواجه هذه الجموع؛ ومن هنا برزت فكرة الخندق وحققت أهدافها .

ومنع عمرو بن العاص قواته على أثر انتصاره فى عملياته ضد قضاعة من مطاردة الفارين خوفا من أن يعودوا أدراجهم بقوات أكثر وأضخم فيصعب ملاقاتهم وخاصة أنه يحاربهم فى أرضهم ..

كما أنه منع رجاله من إيقاد النار فأنكر ذلك عمر بن الخطاب وطلب من أبى بكر أن يحدثه فى ذلك فأغلظ له عمرو وقال « لا يوقد أحد نارا إلا قذفته فيها » ولما عادوا شكوه إلى رسول الله فقال عمرو « لقد خفت أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين لأعدائهم وهم قلة فينقضوا عليهم » .

وتصرف عمرو بعد احتلاله الفرما وهو فى طريقه إلى مصر يؤكد حرصه الشديد على سلامة قواته فقد هدم أسوارها وحطم حصونها حتى لا يستفيد منها الروم إذا عادوا إليها وتملكوها كما أمر بحرق السفن الراسية فى المرفأ القريب منها حتى لا يستغلها العدو ضده .

ولقد كانت سلامة الأراضى التى أصبحت فى حوزة المسلمين فى فسلطين وبلاد الشام هى الدافع الأساسى لفتح مصر ،حيث تتجمع قوات كثيرة تابعة للروم تشكل خطرا جسيما على القوات الاسلامية فى شرقها .

وعندما أصيب المثنى بن حارثة إصابة الموت دعا أخاه وزوجه وحملهما رسالة إلى سعد بن أبى وقاص طلب منه فيها أن يلزم العرب مراكزهم على حدود الصحراء، وألا يقاتلوا أعداءهم فى عقر دارهم وأن يقاتلوهم على حدود أرضهم على أدنى مدرة من أرض العجم فالبادية تحمى ظهورهم والفرس لا يستطيعون التوغل فيها، كما أن البادية تمثل نقطة انطلاق إلى داخل العراق . . . هذه النصيحة التى تقبلها سعد راضيا تهدف أولا وقبل كل شيء إلى حماية القوات العربية وسلامتها .

ولا يفوتنا أن نذكر أن السلامة فى معناها العام تشمل بجانب سلامة القوات المحاربة سلامة الأمة بأسرها ووقايتها وحمايتها . . . وسلامة الأمة فى الإسلام تعنى سلامة الدعوة والمؤمنين بها، وهذا هو ما أشرنا إليه فى أول حديثنا عن السلامة .

٧ — التعـاون . . .

ويعنى توحيد العمل والتضامن من أجل الوصول إلى الهدف...

ولقد حرص الرسول الكريم على أن يكون التعاون متكاملا بين المسلمين جميعا وخاصة فى أمور الحرب ؛ فلم يكن عليه السلام يضع خطة بمفرده ؛ ولم يكن يستبد برأى معين ؛ بل كان يطرح الأمر شورى بين الناس ، كل يدلى بدلوه ويعرض وجهة نظره . . وكانت الآراء تناقش بروح الأخوة الإسلامية . . .

فى بدر عرض الرسول على الناس الموقف فتحدث المهاجرون بحريتهم وتناول الأنصار الموقف بصراحة ، وانتهى الأمر إلى خطة المواجهة والكل متفق عليها فى الرأى متعاون فى الموقف .

وكذلك كان الأمر عند الخروج فى أحد ، فقد أبديت الآراء ، قال البعض بالبقاء واتخاذ خطة الدفاع ، وقال البعض بالخروج واتخاذ خطة الهجوم ؛ وتغلبت الفكرة الثانية واستجاب لها الرسول ، وتعاون المسلمون جميعا القائلين بالدفاع والمنادين بالهجوم وأصبحوا قوة متعاونة .

وفى عهد أبى بكر كان التعاون هو الأمر السائد فى أمور الحرب،

فلم يقرر أبو بكر رأيا وحده ، بل كان معه مستشاروه الذين تعاونوا معه إلى أقصى حدود التعاون .

وكانت خطة العمل فى الميدان تقوم أيضا على التعاون ، ففى حروب الردة حددت اختصاصات لكل لواء ، وكلفت بعض هذه الألوية بمعاونة ألوية أخرى ، كمعاونة لواء شرحبيل بن حسنة للواء عكرمة بن أبى جهل .

ومن أمثلة التعاون الصادق موقف المثنى بن حارثة مع خالد بن الوليد حين تولى الأخير القيادة مكانه ، وموقفه مع أبى عبيد بن مسعود حين ولاه عمر قيادة الجيش العربى فى العراق لقد عمل المثنى تحت قياده الاثنين كأى جندى بسيط ، ونسى تماما أنه كان قائد للجيش وأنه حقق قبلهما انتصارات عظيمة ، وأنه لا يقل عنهما مكانة وقدرة وفنا .

وأعظم أمثلة التعاون كان فى اليرموك فقد كانت ألوية المسلمين مستقلة فى قيادتها وتحركاتها وعملياتها بينما كانت قوات أعدائهم تجتمع تحت قيادة واحدة ، ودعا خالد الأمراء إلى أن يتنازلوا عن قيادة ألويتهم ، وأن ينضموا فى جيش واحد تحت قيادة واحدة فاستجابوا له ، وأسندوا إليه القيادة ، وأخذوا يأتمرون بأمره .

إن القادة المسلمين كانوا يحسون بعمق بأهمية التعاون إيمانا منهم بقوله تبارك وتعالى « وتعاونوا على البر والتقوى » وجهادهم جميعا كان برا بالإسلام وكفاحهم المتصل كان نوعا راقيا من التقوى . . .

٨ — المطاردة . . .

تعنى متابعة المنهزم ومحاولة القضاء عليه حتى لا يملك القدرة على العودة إلى ميدان ليحارب من جديد . . .

وأُثر عن نابليون قوله «الانتصار لا يعد شيئا إذ يجب إتمام وتعزيز هذا النصر وأن سر الحرب هو أن تمشى أثنا عشر فرسخا وتخوض غمار معركة ثم تمشى أثنا عشر فرسخا آخر للمطاردة . . »

وللمطاردة آثار بعيدة المدى على الجيش المنهزم ، فانه يكون قد فقد الكثير من معنوياته ومن قدرته على المواجهة وحمل السلاح ، وتفتر عنده الرغبة فى القتال ، فإذا ما أحس بمطاردة عدوه أسقط فى يده وآثر السلامة فلا يفكر فى عودة إلى قتال .

ويسجل تاريخ الحروب الاسلامية صورا عديدة للمطاردة التى كان يؤمن بها القادة المسلمون كمبدأ هام من مبادئ الحرب .

وتمت أول عملية مطاردة فى غزوة السويق تولاها الرسول بنفسه ضد مائتى فارس من قريش بقيادة أبى سفيان ، وكان الهدف من المطاردة هو القضاء على قوة قريش ، وكان القرشيون من فرط خوفهم خلال المطـاردة يتخففون من أرزاقهم التى يحملونها ، حتى تمـكنوا من الفرار ، وعثر المسلمون فى طريق المطاردة على هذه الأرزاق ، فبعد هزيمة بدر خرج أبو سفيان على رأس عدد قليل من أتباعه إلى مكان يسمى العريض ، حيث قتل رجلا من الأنصار وحرق بعضا من النخيل ، فخرج الرسول لملاقاته ولـكنه أسرع بالفرار والرسول يطارده حتى قرقرة الـكدر .

وفى حنين وبعد أن تمت هزيمة هوازن أمر الرسول بمطاردتها وقال « من قتل مشركا فله سلبة » ، وتبع المسلمون هوازن حتى أوكاسا ، وسلبوا من احتملوا من النساء والأموال ، وأمر الرسول بالمسلمين بمطاردة مالك بن عوف الذى فر مع بعض قومه إلى الطائف وامتدت المطاردة إلى هناك .

وفى حروب العراق كان خالد حريصا على مطاردة المنهزمين من قوات الفرس ، وكذلك كان المثنى بن حارثة . . . ومن بعده سعد بن أبى وقاص .

وكذلك كان عمرو بن العاص فى قتاله للروم فى مصر ، وكذلك موسى بن نصير وطارق بن زياد وهما يقودان جيوش المسلمين فى شمال أفريقيا فى حروب الأندلس ، وكذلك كان قادة الدولة العباسية وهم يكتسحون أراضى آسيا وينشرون الإسلام فى ربوعها.

وكذلك أيضا كان جميع القادة المسلمين فى معاركهم فى كافة الميادين فى آسيا إيمانا منهم هى الضربة القاصمة التى تكسر العدو فيؤمن من جانبه .

خاتمة

يصدر هذا الكتاب وبلادنا فى هذه الآونة تجتاز فترة حاسمة فى تاريخها تستعد لخوض غمار معركة جديدة من أجل التحرير بعد أن ظلت القوات الاسرائيلية تدنس أرضها الطاهرة زهاء أربع سنوات .

وانني حين ارجع بالذكرى إلى أيام يونيو ٦٧ لاحس بإن الهزيمة التى اصابت قواتنا ليست بقاصمة الظهر .. فما حدث فى يونيو كان لقاء مع العدو رجحت فيه كفته . . . وما زال هناك لقاء آخر منتظر نعد له الان يتطلع إليه المسلمون جميعا آملين أن يتحقق لهم نصر جديد يمحى هزيمة يونيو ويعيد إلى الاذهان انتصارات اجدادهم العظيمة التى تؤكد عظمتهم العسكرية وقدرتهم الحربية .

أن المحنة التى نعيشها ليست باول محنه تمر بها امتنا العربية فقد مرت بنا على طول التايخ أيام شداد وفترات قاسية ومحن عنيفة ولكن المسلمين الاوائل بما تميزوا به من إيمان عميق وعقيدة راسخة وامل كبير فى الله الذى وعدهم المؤازرة والعون والنصر تمكنوا من أن يجتازوا كل مامر بهم فى قوة وصمود وصبر وجلد وشجاعة وصلابة . .
لقد درسوا الهزيمة وعرفوا اسبابها ووقفوا على وسائل علاجها

واستفادوا من هذه الدروس فى معاركهم الاخرى واستطاعوا أن يحولوا الهزيمة فى أكثر من وطن إلى نصر حفل به تاريخهم المجيد..
والامثلة من واقع تاريخنا الإسلامى كثيرة متعددة . . .

ففى احد لحقت بالمسلمين الهزيمة وهم يحاربون تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رأى رسول الله فى ارض المعركة جبلا يشرف عليها وادرك أن من يسيطر على هذا الجبل يوقع بالعدو الخسائر فوضع عليه جماعة اشداء من رجاله ، وأمرهم بالبقاء فوقه والا يتركوا اماكنهم ابدا فى حالتى النصر والهزيمة . . . ولكن الرماة ماأن رأوا نصر المسلمين حتى تركوا اماكنهم طمعا فى الغنيمة ورفضوا الاستجابة إلى نداء قائدهم عبد الله بن جبير وتركوه مع نفر قليل ، ولمح خالد بن الوليد وكان على فرسان قريش خلو الجبل من الرماة وقلة اهله وادرك بفكره العسكرى اهمية الجبل فكر بخيله وركب اكتاف المسلمين وقتل اميرهم عبد الله واوقع الاضطراب والخلل فى صوفهم وتبدل الموقف إذ تبعه عكرمه بن ابى جهل وشد على المسلمين فاصيبوا اصابات بالغة وهزموا واصيب رسول الله حتى اشيع أنه قد مات وارتفعت روح المشركين وورمت آنافهم وانتفخت اوداجهم وصاح ابو سفيان فى فرح وسرور « يوم بيوم بدر » .

لم يستسلم المسلمون لهذه الهزيمة رغم انهم فقدوا خيرة رجالهم وفى مقدمتهم حمزة عم الرسول والسند القوى للاسلام والمسلمين . . لقد واصلوا معاركهم ضد قريش ودارت بين الطرفين معارك كثيرة انتهت بالانتصار العظيم يوم الفتح المبين يوم استسلمت مكة ودخلها المسلمون مظفرين وتجمعت قريش كلها تنتظر حكم محمد فيهم فجاءهم حكمه الإنسانى العظيم المعبر عن سماحة الإسلام « اذهبوا فانتم الطلقاء »

وفى مؤته كان اللقاء بين المسلمين والروم .. فى هذا اللقاء اصابت المسلمين هزيمة مرة على ايدى اعدائهم الذين كانوا يفوقونهم عددا وعدة وخبرة . . . . فى هذا اللقاء استشهد ثلاثة من اعاظم قواد المسلمين زيد بن حارثة وجعفر بن ابى طالب وعبد الله ابن رواحه . . . استشهدوا بعد أن أدى كل منهم واجبه أحسن مايكون الاداء .. لم يقصر منهم احد ولم يجبن عند اللقاء وانما تقدم الصفوف حاملا اللواء مصمما على النصر أو الاستشهاد . . . فقد اندفع زيد يقاتل الروم وتناولته السيوف بالطعن حتى مات وقال فيه رسول الله « استغفروا لزيد لقد دخل الجنة وهو يسعى » ثم تولى القيادة جعفر وانقض على الروم يقتل فيهم يمينا وشمالا فقطعت يمينه فاخذ اللواء بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه فضربوه بسيوفهم حتى قطعوه نصفين

ووجد المسلمون فيما بقى من بدنه تسعين ضربة بين طعنة برمح وضربة بسيف وقال عنه رسول الله « لقد رأيته فى الجنة له جناحان مضرجان بالدماء مصبوغ القوادم » . ثم حمل اللواء من بعده عبد الله بن رواحه وقد شاهد استشهاد البطلين من قبله فخاطب نفسه « يانفس إلى أى شىء تتوقين ، إلى امرأتى فهى طالق وإلى غلمانى فهم احرار وإلى صحن حائط فهو لله ورسوله » ثم تقدم الصفوف وجاهد حتى قتل . . . نجح خالد بن الوليد الذى تولى قيادة الجيش من أن ينقذ المسلمين من هلاك محقق وأن ينسحب بهم إلى المدينة بعد أن اندقت فى يده تسعة اسياف وغضب اهل المدينة عليهم فاخذوا يلومونهم فى عنف ويقولون لهم « يافرار .. يافرار .. فررتم فى سبيل الله » فكانوا يتوارون ولا يحضرون الصلاة خشية الثورة عليهم وادرك رسول الله حالهم فقال « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » .

وشاء الله تبارك وتعالى وكانت ارادته ..

لم ييأس المسلمون ولم يجبنوا إنما اتخذوا من الهزيمة فى مؤته الدرس المستفاد الذى تحقق لهم به النصر على الروم . . فقد رأى أبو بكر الصديق أن يواجه الروم فى دارهم وفوق أرضهم فوجه قواته الباسلة إلى هنـاك وقال « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان

بخالد بن الوليد « . . . وواجه خالد جيوش الروم الجرارة وأسلحتهم الجباره فى اليرموك ووقف بين قواته يقول « إنكم زادة العرب وأنصار الاسلام وأنهم زادة الروم وأنصار الشرك اللهم أن هذا يوم من أيامك .. اللهم أنزل نصرك على عبادك » ، وكان النصر للمسلمين الأمجاد الميامين وزلزلت قواتهم أركان امبراطورية هرقل واستجاب الله لدعوة خالد وجاء نصره تعالى واندحرت قوات الروم على كثرتها ولم تتف هزيمتهم عند اليرموك وإنما امتدت بعد ذلك فى كل جولة وكان النصر فى ركاب المسلمين فى دمشق فحل وحمص وقنسرين وفر هرقل وقد اسقط فى يده تاركا بلاد الشام وهو يقول « وداعا سوريا وداعا لا لقاء بعده » .

ثم امتد انتصار المسلمين على الروم إلى مواقعهم فى مصر على يد القائد المسلم عمرو بن العاص ونال الروم الهزائم فى الفزا وبلبيس وأم دنين وهليوبوليس وبابليون والاسكندرية .

ثم امتد تيار النصر الإسلامى المؤزر على الروم فى شمال أفريقيا على يد القادة الأمجاد عقبة بن نافع وعبد الله بن الزبير ويسر ابن أبى أرطأ وطارق بن زياد وموسى بن نصير وغيرهم وانتهت دولة الروم فى شمال أفريقيا ودخلت كلها فى الإسلام .

وهزم المسلمون فى موقعة الجسر فى العراق خلال الاشتباك المسلح الذى دار بينهم وبين الفرس . . . كان قائد المسلمين هو أبو عبيد بن مسعود وواجه بقواته بعض جاذوبة على رأس جيوش الفرس وكان النهر يفصل بين القوتين وبعث بهن إلى أبى عبيد . . « أما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وأما أن تدعونا نعبر » وقرر أبو عبيد أن يعبر المسلمون مخالفا بذلك رأى من كان معه من قادة المسلمين كالمثنى بن حارثه وسليط بن قيس الذين رأوا عدم العبور . . ووقعت الهزيمة بالمسلمين فقد هاجمهم الفرس أثناء العبور وكانت الهزيمة قاسية استشهد فيها أبو عبيد وأخوه الحكم وأبناه وهب ومالك واستشهد أيضا سليط بن قيس وأبو مخيف أبوزيد الانصارى — وكان من حملة القرآن — وهلك أربعة آلاف مسلم ما بين قتيل وغريق ولم ييأس المسلمون من هذه الهزيمة وإنما استمدوا منها القوة والأمل والرجاء وتولى قيادتهم المثنى ابن حارثة واستطاع وهو القائد المغوار أن يذيق الفرس مرارة الهزيمة الهزيمه فى مواقع متتالية فى البويب ثم الخنافس وسوق بغداد وصفين وتكريت ثم تولى القيادة من بعده سعد بن أبى وقاص « أسد الله فى براكنه » وأكمل المشوار ضد الفرس فهزمهم شر هزيمة

فى القادسية والمدائن وجلولاء وحلوان وهيت وسوس ثم كانت الضربة القاضية فى نهاوند فأنهار حكم عبدة النـار ووجد يزد جرد كسر الفرس مقتولا فى طاحوله بيد رجاله الذين فقدوا الأمل فى إيقاف التيار الإسلامى وارتفع لواء الإسلام فوق أرض العراق .

حدث هذا فى العصر الإسلامى المتقدم . . . إما فى العصور الوسطى فقد ألمت بنا ملمتان على يد الصليبين مرة وعلى يد المغول مرة أخرى .

فقد جاءت إلى المشرق العربى حملات صليبية أثارها ملوك أوروبا ضد الإسلام رغبة في القضاء عليه وعلى المسلمين فى المنطقة ويأمل فى أن تقام قورة لاتينية فى سوريا وفلسطين كما ذكر ستيفن سن فى كتابه الصليبيون فى الشرق وفى امتلاك الأرض المقدسة كما طالب البابا أوربانوس الثانى . ونجحت الحملات الصليبية إلى حد ما حتى تولى أمر المسلمين صلاح الدين الأيوبى فواجه الصليبين بإيمان وصبر وقوة واستطاع أن يقضى عليهم فى حطين وأن يستعيد بيت المقدس .

ثم بذلت محاولة صليبية أخرى بقيادة الملك لويس ملك فرنسا

قاد حملة جديدة واجه بها المسلمين فى ميدان جديد فى أرض مصر ووجه حملته إلى دمياط وأحرز بعض النجاح حتى كان لقاء المنصورة حيث واجه المسلمون فى معركة تاريخيه فاصلة تحقيق لهم فيها النصر الكبير ولحقت بقواته هزيمة نكراء ما زالت أبنية المنصورة التى ضمته أسيرا ذليلا تحكيها وتروى وقائعها وتفاصيلها .

واجتاحت قوات المغول بلاد العراق فأحرقت ودمرت المدن وقتلت الناس ونشرت الرعب والفزع ثم تقدمت جحافلهم إلى أرض الشام تحرق وتدمر وتنزل الهلاك بالناس والأرض والزرع والحياة ولم ييأس المسلمون ولم يفقدوا ثقتهم فى الله ونصره فقد سار إليهم السلطان قطز بكل ما حواه قلبه ووجدانه من إيمان وعقيدة وسارت معه جموع المسلمين تؤيد دين الله وتقف فى وجه الغزاة والتقى الجمعان فى عين جالوت واستبسل المسلمون فاوقفوا تيار المغول وهدوا قواهم وانتزعوا منهم النصر وانحسر موجات المغول وبقى العالم الاسلامى قويا عزيزا بفضل إيمان رجاله وبطولاتهم :

وها نحن أولاء فى القرن العشرين نواجه موقفا مشابها للمواقف الكثيرة التى واجهها أجدادنا فى الزمن القديم والمتوسط فقد

استطاع اليهود خلال أعوام ٤٨ — ٦٧ أن يثبتوا أقدامهم فوق أرض عربية يدين أهلها بالإسلام ويؤمنون بالله الواحد القهار وأن يضعوا أيديهم على المسجد الأقصى أولى القبلتين وثانى الحرمين وأن يدنسوا بيت المقدس الذى أسرى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذا كان اليهود قد أحرزوا انتصارات مؤقتة كان آخرها فى ١٩٦٧ فإن لنا فى ماضينا درسا يجب أن نذكره ونستعيده ونتمثل به فالمعركة مازالت قائمة لم تنته وأرضنا كما أكد التاريخ هى مقبرة الغزاة ورجالنا مازالوا أعزة أباة يرفضون الضيم ويأبون الظلم .. وأمام أعيننا شريط طويل من الأحداث الحسام وصفحات مشرقة لتاريخ أجدادنا اتباع محمد وصور مجيدة لجهادهم وبطولاتهم ونماذج حية لكفاحهم ومواقفهم وإحرازهم النصر الذى أعز الله به الإسلام .

إننا ونحن نواجه اليهود اليوم نذكر هذا التاريخ المجيد ونذكر أول ما نذكر ما قاله أجدادنا الميامين من رجال محمد لرسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان المقداد بن عمرو « يا رسول الله أمض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا أنا هاهنا قاعدون بل نقول لك اذهب

أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون والذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » وعلى لسان سعد بن معاذ الذى قال « امض يارسول الله لما أردت فنحن معك الذى بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ومانكره أن تلقى بنا عدونا وأنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء لعل الله يريك منا ما تقربه عينك » .

إننا فى معركتنا القادمة ضد اليهود سنقاتل . . سنقاتلهم بقوة الإيمان وسنواجههم فى شجاعة وعزم وتصميم ولسان حال كل منا يردد :

سأحمل روحى على كفتى   وأمضى بها فى سبيل الردى
فإما انتصار يسر الصديق   وإما ممات يسئ العدا

ويردد أيضا قول ابن رواحه « ما نقاتل الناس بعدد ولاقوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين . . إما ظهور . . وإما شهادة » .

إن الله تبارك وتعالى قد وعد المجاهدين من رجاله النصر . . والله فى معركتنا القادمة ضد عدوه وعدونا سيكون معنا على الطريق إلى النصر والتوفيق خير معين ورفيق الحمد لله أولا وأخيراً .

الفهرس

ما صدر من سلسلة البحوث الاسلامية حتى الآن

العدد	الكتاب	المؤلف
١	ـ الرسول صلى الله عليه وسلم	الدكتور عبد الحليم محمود
٢	ـ العقيدة الاسلامية	الشيخ محمد أبو زهرة
٣	ـ التقويم العربى قبل الاسلام	الأستاذ محمود الفلكى
٤	ـ الايمان	الدكتور محمد البهى
٥	ـ بيت المقدس فى الاسلام	الدكتور عبد الحليم محمود
٦	ـ المسجد الأقصى	الشيخ عبد اللطيف مشتهرى
٧	ـ سنة الرسول	الشيخ محمد حافظ التيجانى
٨	ـ فى رحاب السنة	الدكتور محمد أبو شهبة
٩	ـ نشأة الفقه الاجتهادى	الشيخ محمد على السايس
١٠	ـ القاديانية	الشيخ محمد الخضر حسين
١١	ـ الدين العالمى ومنهج الدعوة اليه	الشيخ عطية صقر
١٢	ـ الأزهر فى ألف عام	الدكتور أحمد محمد عوف
١٣	ـ التفسير ورجاله	الشيخ محمد الفاضل بن عاشور
١٤	ـ الرسول صلى الله عليه وسلم (اعادة طبع)	الدكتور عبد الحليم محمود
١٥	ـ مقومات الانسانية فى القرآن الكريم جـ١	الدكتور أحمد مهنا
١٦	ـ أهداف اسرائيل التوسعية	اللواء الركن محمود شيت خطاب
١٧	ـ السبيل الى دعوة الحق والقائم بأمرها	الدكتور محمد البهى
١٨	ـ قواعد الاعتقاد	حجة الاسلام أبو حامد الغزالى
١٩	ـ المسلمون واسترداد بيت المقدس	الأمام الأكبر الدكتور محمد الفحام
٢٠	ـ بستان العارفين (تحقيق)	الأمام الحافظ ابى زكريا محيى الدين النووى
٢١	ـ من قضايا العمل والمال فى الاسلام	الشيخ أبو الوفا المراغى

العدد	الكتاب	المؤلف
٢٢	ـ الاسراء والمعراج	الدكتور عبد الحليم محمود
٢٣	ـ شرح اسماء الله الحسنى (تحقيق)	أبو القاسم القشيرى
٢٤	ـ الصيام جنة	الشيخ عبد اللطيف مشتهرى
٢٥	ـ مقومات الانسانية فى القرآن الكريم جـ٢	الدكتور أحمد مهنا
٢٦	ـ المجاهدون فى الله	الشيخ توفيق محمد سبع
٢٧	ـ الدعاء	الدكتور محمد السيد طنطاوى
٢٨	ـ على طريق الهجرة	الأستاذ حسن فتح الباب
٢٩	ـ التنوير فى اسقاط التدبير (تحقيق)	الشيخ ابن عطاء الله السكندرى
٣٠	ـ من السيرة العطرة	الشيخ محمد أحمد الاختيار
٣١	ـ البيان القرآنى	الدكتور محمد رجب البيومى
٣٢	ـ نظرة الاسلام الى الربا	الدكتور محمد أبو شهبة
٣٣	ـ هادى الارواح	الدكتور مصطفى الطير
٣٤	ـ نفوس ودروس فى اطار التصوير القرآنى جـ ١	الشيخ توفيق محمد سبع
٣٥	ـ نفوس ودروس فى اطار التصوير القرآنى جـ٢	الشيخ توفيق محمد سبع
٣٦	ـ القيم الخلقية والانسانية فى الغزوات	الأستاذ حسن فتح الباب
٣٧	ـ الاسرائيليات فى التفسير والحديث	الدكتور محمد السيد الذهبى
٣٨	ـ قضايا العصر فى ضوء الاسلام	الأستاذ أنور الجندى
٣٩	ـ هكذا نصوم	الشيخ توفيق محمد سبع
٤٠	ـ السرايا الحربية فى العهد النبوى	الدكتور محمد السيد طنطاوى
٤١	ـ محمد صلى الله عليه وسلم من نبعته الى بعثته	الشيخ محمد الصادق عرجون
٤٢	ـ خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم	الدكتور محمد رجب البيومى
٤٣	ـ اثر القرآن الكريم فى اللغة العربية	الأستاذ محمد عبد الواحد حجازى
٤٤	ـ المجاهدون فى الله (طبعة ثانية)	الأستاذ توفيق محمد سبع
٤٥	ـ فن ادارة المعركة فى الحروب الاسلامية	الأستاذ محمد فرج

كلمة الاشراف

عزيزى القارىء ....

لا استطيع أن أعبر عن مدى غبطة وتقـدير أسرة الاشراف الفنى لتلك الثقة العالية ، والتشجيع الكبير الذى أوليته لنا فى تعبيرك العملى باقبالك الهائل على قراءة سلسلة البحوث الاسـلامية التى تصدرها الأمانة العامة لمجمع البحوث الاسلامية مما جعلهـا تنفد من الباعة بعد وقت قصير من ظهورها .

وفى هذه الظروف الحاسمة التى نعد فيها الجبهة الداخلية كلها على مستوى المواجهة الشاملة مع العدو الغادر قدمنا لك ياعزيزى القارىء كتاب (المجاهدون فى الله) .

واستكمالا لهذا الواجب ، وتعميما للفائدة نقدم الكتاب الذى بين يديك (فن ادارة المعركة فى الحـروب الاسـلامية) للكاتب العسكرى المسلم الأستاذ محمد فرج ، حتى يمكن لكل مقاتل وكل مواطن فى الجبهة الداخلية أن يأخذ صورة واضحة ، وتكوين فكرة عامة عن الأصول والقواعد العلمية التى كانت تدار عليها المعـارك الاسلامية ، وفق هدى النبى الأمين محمد عليه الصلاة وأفضـل التسليم :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) .

(يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) .

صدق الله العظيم

طلعت غنام

المؤلف فى سطور

من مواليد (ميت بره) محافظة المنوفية عام ١٩٢٣م .

تخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٤٥م .

حصل على دبلوم دراسات عليا فى التاريخ من المعهد العالى للدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية عام ١٩٦٣م .

تولى منصب مساعد مدير الثقافة بادارة تعليم وثقافة الجيش

أسندت اليه رياسة تحرير مجلة الثقافة التى كانت تصدرها القوات المسلحة عام ١٩٥٥م .

يعمل الآن مديرا عاما لاحدى شركات مؤسسة المطاحن .

نال وسام الذكر الحسن فى عمليات فلسطين عام ١٩٤٨م ووسام الاستحقاق السورى عام ١٩٥٦م .

رشح لجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦١م .

القى عدة محاضرات فى الجمعيات الأدبية ، واشترك مع مجموعة من الكتاب فى اعداد دراسات عن الميثاق .

نشر له كثير من المقالات والبحوث فى الصحف والمجلات الاسلامية .

نشر له ٣٦ مؤلفا فى التاريخ القومى والاسلامى وفى مقدمتها :

١ ـ العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول .
٢ ـ المثنى بن حارثة .
٣ ـ سيف الله خالد .
٤ ـ السلام والحرب فى الاسلام .
٥ ـ عمرو بن العاص .
٦ ـ شخصيات عسكرية اسلامية .
٧ ـ الفتح العربى للعراق وفارس .
٨ ـ نماذج من العسكرية .
٩ ـ فلسطين عربية اسلامية .
١٠ ـ حروب الردة .

مطابع
الشركة المصرية للطباعة والنشر
بالقاهرة

رقم الايداع بدار الكتب ١٨٩١/١٩٧٢



الكتاب القادم :

الهجرة

بداية مراحل التحول والانطلاق

بقلم

محمد عبد الله السمان

الشركة المصرية للطباعة والنشر

ص
١٠